المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

دراسة

سنوات بوش في الشرق الأوسط (٢٠٠٠-٢٠٠٨)

"الشرق الأوسط الكبير"... أهو حقيقة أم اختراع؟

د. هشام القروي | يوليو ٢٠١٢

سنوات بوش في الشرق الأوسط (٢٠٠٠-٢٠٠٨)

"الشرق الأوسط الكبير"... أهو حقيقة أم اختراع؟

سلسلة: دراسات

د. هشام القروي | يوليو ٢٠١٢

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © ٢٠١٢

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات مؤسّسة بحثيّة عربيّة للعلوم الاجتماعيّة والعلوم الاجتماعيّة التطبيقيّة والتّاريخ الإقليميّ والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاثٍ فهو يولي اهتمامًا لدراسة السّياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربيّة أو سياسات دوليّة تجاه المنطقة العربيّة، وسواء كانت سياسات حكوميّة، أو سياسات مؤسّسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربيّة بأدوات العلوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتاريخيّة، وبمقاربات ومنهجيّات تكامليّة عابرة للتّخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قوميّ وإنسانيّ عربيّ، ومن وجود سماتٍ ومصالح مشتركة، وإمكانيّة تطوير اقتصاد عربيّ، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامجَ وخططٍ من خلال عمله البحثيّ ومجمل إنتاجه.

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات
شارع رقم: ٨٢٦ – منطقة ٦٦
الدفنة
ص. ب: ١٠٢٧٧
الدّوحة، قطر
هاتف: ٤٤١٩٩٧٧٧ ٩٧٤+ | فاكس: ٤٤٨٣١٦٥١ ٩٧٤+
www.dohainstitute.org

ملخّص

كيف نشأ مفهوم "الشرق الأوسط" وما هي دلالاته وارتباطاته؟ لماذا نجد مجموعة متنوعة من التسميات التي تشير كلّها إلى منطقة يختلف في تحديدها؟ فتارة، يكون الحديث عن "الشرق الأوسط"، وتارة أخرى عن "الشرق الأدنى" أو حتى "الشرق الأوسط – شمال إفريقيا". وأحيانا يتحدثون عن "الشرق"، بكلمة "ليفان" Levant الفرنسيّة، وأحيانا أخرى بكلمة "أوريَنت" Orient، أو حتى باستعمال الكلمتين العربيّتين "المشرق" و"المغرب". وهناك أيضا من يتحدث عن "العالم العربيّ"، و"المنطقة العربيّة"، و"الأمة العربيّة"، و"العالم العربيّ الإسلاميّ"، إلخ... فلماذا كل هذه التسميات؟ وهل هي تشير جميعها بقدر أو بآخر إلى الشيء نفسه؟ سنتحدث هنا عن "الشرق الأوسط" من خلال علاقته بالسياسة الخارجيّة الأمريكية. و سنبيّن كيف أنّه بسبب ارتباط ولادة مفهوم "الشرق الأوسط" وتاريخ تطوره بالخطط الإمبريالية، غدا النظام التحتيّ الذي بُني على هذا الأساس خاضعا لمبدأ النّزاع والمواجهة.*

---

* * بعد نشر الفصل الأول من هذه الدراسة الطويلة في الموقع الإلكتروني للمركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات في يوم ٢٠١٢/٣/٦. وكما وعدنا، ننشر هنا الفصل الثاني من الكتاب الذي سيصدر عن المركز قريبا بإذن الله. انظر الفصل الأول :

http://www.dohainstitute.org/Home/Details?entityID=5d045bf3-2df9-46cf-90a0-d92cbb5dd3e4&resourceId=3866f15c-ebe2-48ea-8f5e-efedca765729

كلمة شكر

أريد أن أوجه شكري للزميلين الدكتور سيار الجميل والدكتور علي عبد القادر اللذين قرآ الفصول التي ينشرها موقع المركز وأفاداني بملاحظات قيمة. كما أوجه شكرا خاص للدكتور عزمي بشارة الذي كان أول من رحب بهذا البحث وشجعني على نشره في كتاب سيصدر لاحقا إن شاء الله عن المركز. الشكر أيضا للزملاء الأستاذ جمال باروت، ودِ. عبد الوهاب القصاب ود. هدى حوا ود. وجيه كوثراني، على النقاشات المفيدة، والزملاء في قسمي الترجمة والتحرير، ميرفت أبو خليل، وفيصل ساولي وسماح حمزة وآمال فياش، وكل من ساعد على إنجاز هذا النص.

المحتويات

مقدمة ١

الاتصالات الأميركيّة الأولى بالمنطقة ٢

الاهتمام الغربيّ بـ "الشرق الأوسط" ٨

تحديد "الشرق الأوسط" ١١

الخلاف بشأن التحديد ١٣

اختراع من صنع بريطانيا والولايات المتحدة ١٩

النهج البريطاني: العالم العربي هو قلب "الشرق الأوسط" ٢٧

النهج الأميركيّ: تعقيدات منطقة "تفاعلاتها بسرعة العدوى" ٣٠

مقاربة مجتمع مغلق: ٣٥

الشرق الأوسط بوصفه "نظاما تحتيّا" ٣٥

حالة لبنان ٣٧

المسألة الفلسطينيّة ٣٨

المسألة الشرقية ٣٩

الموقع الإستراتيجي ٤١

تفضيل مصطلح "الشرق الأدنى" ٤٤

الخاتمة ٤٨

على مستوى التّصورات والمفاهيم، يُنظر إلى الولايات المتحدة في المنطقة العربية والشرق الأوسط عامة كوريثة الإمبريالية الغربية وزعيمتها الحالية، على الرغم من أنّه ليس لها تاريخ استعماريّ. إذا كان لهذا التصور أساسٌ في التاريخ الحديث، فهو لا شك انعكاس ذهنيّ لدى سكان المنطقة للمفاهيم الغربية نفسها، وفي مقدمتها مفهوم: **الشرق الأوسط**.

مقدمة

سيكون موضوع اهتمامنا في ما يلي هو المفهوم الإشكاليّ: "**الشرق الأوسط**". كيف نشأ وما هي دلالاته الممكنة؟ يرتبط اهتمام علم اجتماع العلاقات الدوليّة بهذا المفهوم بالقلق الذي يفترض أنّه يولّده في التمثّلات representations وبناء الواقع، خاصة "الواقع المختلف"، أي واقع "الآخر". في هذا السياق، لن يكون ذلك الاهتمام نافلًا، فالدبلوماسية؛ والدبلوماسية العامة؛ ووسائل الإعلام الجماهيرية؛ والشركات الكبرى؛ وحتى المؤسسة العسكريّة تهتمّ بهذا الحقل البحثيّ الذي يمسّ التخصصات جميعها تقريبا: علم النفس؛ وعلم النفس الاجتماعيّ؛ والأنثروبولوجيا؛ وعلم الاجتماع؛ والتاريخ؛ وعلم السياسة؛ ...إلخ. وهذا يعني أنّ الكثير ممّا يُبنى إنّما يُبنى على أساس "الإدراك"، سواء كان صحيحًا أم خاطئًا، في زمن الحرب أم في زمن السلم.

في الصفحات التالية، سوف نبيّن كيف أنّه بسبب ارتباط ولادة مفهوم "الشرق الأوسط" وتاريخ تطوره بالخطط الإمبريالية، غدا النظام التحتيّ الذي بُني على هذا الأساس خاضعا **لمبدأ النّزاع والمواجهة**. فمن الجانبين (أي أميركا والشرق الأوسط)، لن تفلت المواقف من العلاقات المتبادلة من هذه الحتمية، التي بما هي متأصّلة في التجربة التاريخية، ستتواصل في الحاضر بحيث تصوغه. وهكذا، فمن المحتمل أنّ جميع الإدارات الأميركيّة واجهت وتواجه النوع نفسه من الحتميات عندما يتعلق الأمر بالتهيؤ لمسار عملٍ ما في "الشرق الأوسط".

على امتداد هذه الصفحات، سنتحدث عن "الشرق الأوسط الكبير" من خلال علاقته بالسياسة الخارجيّة الأميركيّة. وعندما نستشهد بمختلف الكتّاب لن نغيّر المصطلحات الأصليّة. ولذلك، سيجد القارئ مجموعة متنوعة من التسميات التي تشير كلّها إلى منطقة تحدّد بهذا القدر أو ذاك وبدقّة متفاوتة. فتارة، يكون الحديث عن "الشرق الأوسط"، وتارة أخرى عن "الشرق الأدنى" أو حتى "الشرق الأوسط – شمال أفريقيا". وأحيانا يتحدثون عن "الشرق"، بكلمة "ليفان" Levant الفرنسيّة، وأحيانا أخرى بكلمة "أوريَنت" Orient، أو حتى باستعمال الكلمتين العربيّتين "المشرق" و"المغرب". وهناك أيضا من يتحدث عن "العالم العربيّ"، و"المنطقة العربيّة"، و"الأمة العربيّة"، و"العالم العربيّ الإسلاميّ"، ...إلخ. فلماذا كل هذه التسميات؟ وهل تشير جميعها بقدر أو بآخر إلى الشيء نفسه؟ للإجابة عن هذا السؤال سنبدأ بجولة تاريخية قصيرة.

الاتصالات الأميركيّة الأولى بالمنطقة

لا يجد الباحث في صفحات الماضي الكثير من النماذج عندما يتعلق الأمر بتاريخ العلاقات بين الولايات المتحدة و"الشّرق الأوسط". فالاتصالات القليلة التي وقعت بين الطرفين لم تترك أثرا كبيرا في التاريخ. كان هناك –بالطبع– بعض حالات القرصنة في أوائل القرن التاسع عشر؛ وكما أشار إلى ذلك إيميل لينغيل Emile Lengyel[1]، عندما كان الأميركيّون يبحثون عن الأسواق فإنّهم لم يُغفلوا البحر الأبيض المتوسط. في سنة ١٧٩٠، ذكر وزير الخارجيّة الأميركيّ –آنذاك– توماس جيفرسون في تقرير إلى الكونجرس أنّ نحو مئة سفينة صغيرة تجوب هذه المياه الموبوءة بالقراصنة. ومن الطريف أنّ إحدى أهم الشّهادات عن تلك الأزمنة قدمها كارل ماركس. ففي عام

---

[1] انظر:

Emil Lengyel, *The Changing Middle East,* (New York: The John Day Company, 1960), p. 26.

١٨٣٥، حين كان مراسلا للـ"نيويورك تريبيون" *New York Tribune*، أبدى اهتماما كبيرا بالعلاقة بين الولايات المتحدة و"الشرق الأوسط". ونراه يكتب في صيف تلك السنة، شبه متكهن، قائلا إنّه على الرغم من أنّ الولايات المتحدة لا تعدّ قوةً ذات نفوذ في "الشرق الأوسط"، فإنّه لم يعد بإمكانها أن تقبل "المنزلة المتواضعة التي كانت لها في الماضي، بعد أن أحرزت درجة عظيمة من الثروة والحضارة والقوة"[٢].

يذكر ماركس كذلك عددًا من التقارير الدبلوماسية والصحفية التي تتجه الوجهة نفسها. هكذا يقول إنّ الولايات المتحدة تسعى منذ سنة ١٨٤٠ إلى كسب قاعدة بحرية في الحوض المتوسطيّ، مؤكدًا أنّ الحكومة الأميركيّة حاولت الحصول على إذن باستخدام موقت لـ"سيرا كوزا" من ملك الصقليتين[٣].

يشير ماركس كذلك إلى شائعات مصدرها ألمانيا عن "معاهدة سريّة زُعم أنّها عقدت بين الولايات المتحدة وتركيا، تحصل بموجبها الأخيرة على أموال ودعم بحري، فيما تحصل الأولى على مرفأ أنوش في روميليا، وهو ما يوفر مكانا جيدا وآمنا لإقامة محطة تجاريّة وعسكريّة للجمهورية الأميركيّة في البحر الأبيض المتوسط"[٤]. ويرى لينغيل أنّه من غير المحتمل أن تكون أنوش استخدمت كقاعدة عسكريّة. على أنّ أهم ما تتضمنه ملاحظاته في هذا الصدد أنّ وجود هذه الإشاعات والتقارير يدلّ – في حد ذاته – على أنّ أوروبا كانت منذ ذلك الحين تتوقع دخول الولايات المتحدة إلى البحر الأبيض المتوسط، أي قرنًا كاملًا قبل أن يدخل إليه الأسطول السادس فعلا.

---

[2] E. Lengyel, op. Cit. 29.

[3] Loc. Cit.

[4] Ibid., 30.

تسمى أنوش اليوم إينيز، وتقع على الحدود اليونانيّة التركيّة في ابحر إيجة.

ويلفت ماركس نظرنا أيضا إلى برزخ السويس الذي يعدّه بالدرجة نفسها من الأهمية لكل من الولايات المتحدة وأوروبا. ففي رأيه أنّ السؤال هو: ألا يتعين على الولايات المتحدة أن تكون متيقظة للحفاظ على حياد البرزخ، لا سيما بالنظر إلى احتمال تفكّك الإمبراطورية العثمانيّة وسيطرة قوة أجنبية على مصر وسورية؟[٥]

يلاحظ كتّاب آخرون أنّ البدايات الأولى للـ"شرق الأوسط" على الأجندة الدبلوماسية والثقافيّة الأميركيّة تعود إلى ما يسميه مارك تواين "العصر الذهبي" the gilded age، وذلك "ليس فقط لأنّ المبشرين الأميركيّين سعوا إلى إنقاذ مزيد من الأرواح، ولكن أيضا لأنّ التجّار الأميركيّين سعوا إلى توسيع تجارتهم"[٦]. وهكذا، وفقا لدوغلاس ليتل، "مع سبعينيات القرن التاسع عشر، كان رجال الأعمال الأميركيّون يشترون تقريبا نصف محصول الأفيون في تركيا لبيعه في الصين، فيما كانوا يزوّدون الإمبراطورية العثمانيّة بكل شيء من السفن الحربيّة إلى الكيروسين"[٧].

في الوقت نفسه، نجد جيلًا جديدًا من المبشّرين الأميركيّين يتجه إلى أرمينيا وسورية وأقاليم أخرى من الإمبراطورية العثمانيّة، لا لنشر كلمة المسيح فحسب، وإنما أيضا لنشر الأفكار الثوريّة الجديدة. في حوالي عام ١٨٩٠، أصبحت مؤسستان للتعليم العالي كانت أنشأتهما البعثات التبشيريّة الأميركيّة قبل ثلاثة عقود (وهما كلية روبرت على مشارف القسطنطينية والكلية

---

[٥] يقول لينغيل إنّ ماركس كان يشير إلى روسيا عند كتابة ذلك الرأي: " يبدو إذًا أن مؤسس الاشتراكية الماركسيّة الكبير كان يميل إلى الولايات المتحدة أكثر من روسيا، ويفضل الرأسمالية الأميركيّة على الإقطاع القيصريّ". المصدر نفسه.

[٦] راجع دوغلاس ليتل، ص ١٤:

Douglas Little, *American Orientalism: The United States and The Middle East since 1945* (New York: I.B. Tauris, 2002), p. 14.

[٧] أضاف: وكما كتب أحد الدبلوماسيين الأميركيّين في ١٨٧٩ "حتى القناديل القدسية على قبر النبيّ في مكة كانت تنار بزيت من بنسلفانيا". (المصدر نفسه). نلاحظ الخطأ في جملة الدبلوماسي، فقبر النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة وليس في مكة طبعا.

البروتستانتية السوريّة في بيروت) معقلين للأفكار المناهضة للهيمنة التركيّة، ومكانا راح العرب والكرد والأرمن يحلمون فيه بالاستقلال الوطنيّ. لا غرابة إذًا أن يكتب توماس إدوارد لورانس في وصف هاتين المؤسستين قائلا إنّهما "علّمتا التمرّد" لشعوب كامل الإمبراطورية العثمانيّة.

وفقا لدوغلاس ليتل، إنّه في حين بدا معظم المراقبين الأميركيّين متفقين على فكرة أنّ مسيحيّي أرمينيا وسورية يمكن أن يستفيدوا عظيم الفائدة من الدروس التي تقدمها هاتان المؤسستان، توقع عدد قليل من رجال الدين والدبلوماسيين أن تنتج تلك الدروس كل شيء إلا عواقب كارثية في العالم الإسلامي. وذكر أنّه عندما أسقطت جماهير الطلّاب والفلّاحين الإيرانيّين الغاضبين الحكومة الملكيّة وأجبروا الشاه على إعلان الملكيّة الدستورية في ١٩٠٦، قال السفير ريتشموند بيرسون بلهجة لا تخلو من السخرية: "لا يسجّل التاريخ مثلا واحدا عن حكومة دستوريّة ناجحة في بلد دين الدولة فيه هو الإسلام"[٨]. أما السفير جون ليهمان في القسطنطينية، فلم يكن أكثر تفاؤلا بخصوص آفاق الحكم الدستوريّ في تركيا، إذ قام بعض الضباط الإصلاحيّين الشبان الأتراك (حركة تركيا الفتاة) بانقلاب في تموز / يوليو ١٩٠٨، لغاية تقييد سلطات السلطان. بعد ذلك بثمانية شهور، روى ليهمان ما يلي: "بدأت العناصر المتعصبة بين الطلّاب المسلمين والجنود ورجال الدين أعمال شغب مناهضة للحكومة وتمردًا عسكريًّا، بحيث ساد الرعب وتتابعت جرائم القتل"[٩].

كانت فكرة أنّ الإسلام حاجزٌ ضد التحديث والديمقراطية متغلغلة –في ذلك الوقت– عميقا في أذهان بعضهم. ومع ذلك، فقد حدث تطورٌ مهم، فليس الأميركيّون أو الغربيون الذين يعتقدون اليوم أنّ أنظمة البلدان الإسلامية لا يمكن إصلاحها، وإنما شعوبها –ذاتها– التي وصلت في

---

[٨] المصدر نفسه.

[٩] المصدر السابق.

بعض الحالات إلى الدرجة الصفر من الأمل[١٠]. إنّ التطرف الزاحف والعودة إلى نماذج مقاومة ونضال مستوحاة من الأيام الأولى للإسلام تجد ههنا تفسيرا نسبيّا. وهكذا، وقع تحول في الإدراك، وانزلقت بعض التصورات والمفاهيم تدريجيًّا منتقلة من جانب إلى آخر. فيما يخص الغرب، يمكن أن نعزو هذا التحول في الإدراك إلى التطورات الأخيرة التي شهدتها العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة. وفي أيامنا، يحرص أغلبية المراقبين من ذوي التخصص والخبرة على تجنب اعتبار الإسلام سببا من أسباب الانحطاط الذي يعاني منه المسلمون، أو بأنّه أساس أنظمتهم الاستبداديّة. وقد حدثت هذه التغيرات بسرعة كبيرة إذا ما تذكرنا بعض الأمثلة من بدايات القرن العشرين.

يذكر دوغلاس ليتل بصفة خاصة الرئيس روزفلت الذي عيّن ليهمان وبيرسون، والذي لم يكن أقلّ تشكّكا في إمكانيات التقدم والإصلاح في "الشرق الأوسط". ويقول ليتل إنّ روزفلت كان "مؤمنًا إيمانًا راسخًا بوجود تراتبية عرقيّة يتعين فيها على 'الأمم المتحضرة' مثل الولايات المتحدة أن تحمل على كاهلها 'عبء الرجل الأبيض' وتحاول أن تغرّب [تجعلها غربيّة] شعوب آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية 'المغرقة في الظلمة'"[١١]. وقد اعترف روزفلت في عام ١٩٠٧ لبعض خاصته بما يلي: "من المستحيل أن نتوقع السعادة الأخلاقيّة والفكريّة والماديّة من الأماكن التي يسود فيها الدين المحمّديّ"[١٢].

---

[١٠] هذا ما أثبتته بكل وضوح ثورات "الربيع العربيّ" في ٢٠١١.

[11] Douglas Little, Op. Cit., p. 15.

[١٢] المصدر نفسه.

من الجدير بالذكر أنّ هذه الآراء التي عفى عنها الزمن بدرجة كبيرة لم يعد أيّ سياسيّ أميركيّ يدافع عنها علنا، فحتى في أعقاب حادثة ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠١١، لم يكن الإسلام نفسه محل اتهام (إذا استثنينا بعض المتعصبين). بل على العكس، ففي أعلى مستويات المجتمع الأميركيّ، بُذلت جهود لإثبات أنّ الإسلام الأميركيّ لا يزال بخير وأنّ المسلمين الأميركيّين مندمجون تماما في المجتمع الحديث والمتطور، الذي يتماهون معه كمواطنين أميركيّين. كانت هذه هي القضية الرئيسة، لا سيما في برنامج بادرت إليه

لكن، إذا لم يكن روزفلت قد وضع المسلمين في رتبة عالية ضمن تصوره للتسلسل الهرميّ العرقيّ، فهو كما يشير ليتل "وضع اليهود قريبا من القمة"[١٣]، وحتى إذا كان روزفلت كعدد من أعضاء النخبة الأرستقراطية الحاكمة أميركا آنذاك "يسمح لنفسه ببعض الصور النمطية العدوانية تجاه اليهود الأميركيّين"[١٤]، فإنه انتقد بشدّة الموجة المعادية لليهود التي عبرت تركيا وروسيا خلال الحرب العالمية الأولى. كما كان من أوائل الرؤساء الأميركيّين الذين أيدوا مبكّرا فكرة إنشاء دولة يهوديّة في فلسطين. ففي تموز / يوليو ١٩١٨، قال روزفلت: "ينبغي أن تتعهد الولايات المتحدة وحلفاؤها بعدم إقرار السّلام حتى يجري طرد الأتراك من أوروبا... وتمكين اليهود من

وزارة الخارجية، وتحدثت عنه بعض المجلات ووسائل الإعلام. وقد نشرته الوزارة على موقعها الإلكتروني. وهذا في رأينا رد فعل طبيعيّ، يستند إلى منطق يقول: إذا كان الإسلام لا يتوافق مع الديمقراطية البرلمانيّة، فكيف يمكن لملايين المسلمين في الغرب أن يعيشوا حياتهم اليوميّة؟ فهل هم جميعا إرهابيون هامشيون أم مرشحون محتملون لعمليات انتحارية؟ إنّ تلك الأفكار المفوّتة تتعارض تماما مع نتائج آخر البحوث التجريبيّة عن الإسلام في أوروبا، خاصة ما يسميه الدكتور أرنو تاوش "الكالفينية الإسلاميّة". انظر على سبيل المثال:

Arno Tausch, Christian Bischof, Tomaz Kastrun & Karl Mueller, *Why Europe Has to Offer a Better Deal Towards its Muslim Communities: A Quantitative Analysis of Open International Data,* (SSRN , March 2007).

http://papers.ssrn.com/sol3/papers.cfm?abstract_id=976611

وانظر كذلك كتابنا المشترك بالفرنسية:

Hichem Karoui et Arno Tausch, *Les Musulmans: un cauchemar ou une force pour l'Europe?* (Paris: L'Harmattan, 2011).

[13] Douglas Little, Op.Cit., p. 15.

[14] Loc. cit.

السيطرة على فلسطين"[١٥]. ووفقا لليتل، فإن روزفلت أضاف بعد شهرين أنّه "سيكون من الملائم تماما البدء بإقامة دولة صهيونية في جوار القدس"[١٦].

وعلى نحو عام، نرجّح أن يكون الاهتمام الأميركيّ بـ"الشرق الأوسط" وجها من وجوه الاهتمام الغربيّ بالمنطقة. وهو اهتمام بدا مع مرور الوقت مرتبطا بذلك "الفضول العام" المتعلق بالشعوب الأخرى، وتطوير المعرفة والعلوم من جهة؛ و مرتبطا، من جهة أخرى، بالمشاريع الاستعماريّة والتنافس بين القوى للهيمنة على منطقة تحتوي ثروات لا مثيل لها من النفط والغاز، ذلك الغذاء الحيوي للصناعة الغربية.

دعونا نسأل الآن: عمليا، كيف تمظهر ذلك "الاهتمام" الغربيّ بالمنطقة؟

الاهتمام الغربيّ بـ "الشرق الأوسط"

يلاحظ إيكلمان أنّ الاهتمام الأنثروبولوجي بدراسة "الشرق الأوسط" تيقظ مع إنشاء الكراسي الأكاديمية لهذا العلم في إنجلترا والولايات المتحدة في مطلع القرن العشرين. والأهم من ذلك أنّه شدّد على الترابط المتحقّق في إطار البحث الأكاديمي بين نظريات داروين في التطور وبين ما

---

[15] Loc. cit.

[16] Loc. cit.

إن ازدواجية روزفلت مدهشة حقا، لا سيما ونحن نعلم أنه خلال مقابلة مع الملك عبد العزيز بن سعود في سنة ١٩٤٥، وعده وعدا رسميا بعدم القيام بأي شيء بخصوص فلسطين لا يوافق عليه الملك!

سماه "الفضول المتعلق بالشعوب البدائية". غير أنّه يعترف بأنّ متابعة هذه الاهتمامات كانت تجري "على نحو هامشي في ما يخص الشرق الأوسط"[١٧].

وبالإشارة إلى إدوارد سعيد في "الاستشراق"، يؤكد إيكلمان أنّ الاهتمام العام بشعوب "الشرق المسلم" انعكس في حقل "الاستشراق" الناشئ الذي شمل كل شيء "من المجتمع الإسلاميّ إلى حضارات الهند والصين واليابان"[١٨]. كما تجلى هذا الاهتمام في مظاهر عديدة بدءًا بالأوبرا (التي مثّلت آنذاك المغاربة –أو الموريسكيّين– والأتراك والفرس) إلى الفنون التشكيلية (كما نرى عند دو لاكروا) والمؤلفات الشعبية مثل كتاب واشنطن إيرفنغ "محمد وخلفاؤه"، أو تلك الأكثر تأثيرا على المستوى الفكريّ مثل كتاب إيرنست رينان "الإسلام والعلم" الذي قدّم نظرية عامة عن "اضمحلال الحضارة الإسلاميّة مقابل حيوية الغرب"[١٩].

عند منتصف القرن التاسع عشر تقريبًا، لم تعد الرحلة إلى "الشرق الأوسط" خطرة. فقد قام روائيون مثل فلوبير وثاكراي بهذه الرحلة، واختلط "سحر الشرق" بالرومانسية لتقديم "البدويّ الخالص" على أنّه "البدائي المعاصر الذي له فضائل جنتلمان العصر الفيكتوريّ"، وهي صورة نمطيّة سيركّز عليها على نحو خاص توماس إدوارد لورانس، بل و"قننها" تقريبا.

وقد عُدّت حملة بونابرت على مصر (١٧٩٨–١٨٠١) الرمزَ الذي يمثّل نقطة اللقاء، إذ اضطر "الشرق المسلم" إلى الاعتراف بهيمنة الغرب المتنامية وتفوقه التكنولوجي والعسكريّ. عند هذه النقطة، هناك حديث عن "صدمة" عميقة عمّت السكان المحليين في مواجهة أوروبا الغازية

---

[١٧] انظر:

Dale F. Eickelman, *The Middle East, an Anthropological Approach.* (New Jersey: Prentice-hall Inc., 1981), p. 23.

[18] Ibid., p. 24.

[19] Loc. Cit.

وفريق المئة وخمسين من العلماء والمستشرقين وغيرهم من الأكاديميين والفنانين الذين صحبوا بونابرت وشرعوا في القيام بجرد منهجيّ لما تحتويه مصر (الجيولوجيا، والمياه، والمعادن، والآثار، وعادات السكان وآدابهم).

وهناك وجه آخر لحملة بونابرت، يتمثل في "محاولته إضفاء شرعية على المشروع الاستعماريّ في عيون الشعب المغزي"[٢٠]. وقد كان لوقع هذه المحاولة المذهلة أثرٌ كبير على الأذهان، إلى حد أنّ المراقبين العرب غالبا ما ذكّروا بها كـ"مرجع" تاريخيّ في معرض تعليقهم على الغزو الأميركيّ للعراق. وبالمناسبة، فقد وقع استخدام هذا "المرجع" التاريخيّ في كل مرة واجه فيها مجتمع "الشرق الأوسط" تدخلا أجنبيا وقع تبريره بكونه مهمة "أخلاقيّة" أو "رسالة حضاريّة".

وكما نعلم، لم يكتف بونابرت بطباعة وتوزيع إعلان بالعربية يزعم فيه أنّه قدم "باسم الإسلام وسيباشر الحكم بطريقة أكثر توافقا مع الإسلام مما فعله النظام المملوكي الفاسد"[٢١]. ولم يكتف بإصدار أوامر لقواته ن تلتزم بإيلاء المساجد كامل الاحترام، وإنّما نراه أيضا يتزيّا بلباس أهل البلد ويبدي من الحماس قدرا دفعه إلى حد الذهاب للصلاة معهم في المساجد "حتى اضطرته سخرية قواته إلى التخلي عن هذه الممارسة"[٢٢]. ومن الغريب أنّه بعد هذه الأحداث بقرن تقريبا، نجد توماس إدوارد لورانس يحاول كسب تعاطف العرب وتأييدهم، فيشعر كذلك بأنّه ملزم باللبس مثلهم والتقيد بتقاليد السلوك "البدوي الجيد" في الصحراء، على الرغم من أنّه لا يوجد ما يشير إلى أنّه قلّد بونابرت إلى حد الذهاب للصلاة في المساجد. وتُذكر هذه السوابق في سياق حرب ٢٠٠٣ في العراق، إذ كان الجنود الأميركيّون قد تلقوا دروسا سريعة في كيفية التأقلم مع وسط

---

[20] Dale F. Eickelman; Op. Cit. p.26.

[21] Loc. Cit.

[22] Loc. Cit.

غريب تماما عن معظمهم. مستعينين بـ"دليل الجندي الأميركيّ في العراق" الذي وُزع عليهم والذي كان متوفرا على بعض المواقع الإلكترونية التابعة لوزارة الدفاع.

كان لا بد أن يصحب ذلك كلّه مجهودًا نظريًا في بناء المفاهيم لدعم الفضول الفكري، وذهنية التاجر أو المبشّر، والمغامرة العسكريّة. وهو ما أنتج عددا من "المقاربات" التي كانت غايتها تحديد "الشرق الأوسط". ومن ثمّ، يطرح السؤال: ما المقصود بهذا المفهوم وعمّ ينمّ؟

تحديد "الشرق الأوسط"

يلفت انتباهنا "أطلس الشؤون الشرق الأوسطيّة"[٢٣] إلى افتقار مصطلح "الشرق الأوسط" إلى الدقّة. فـ"بالنسبة للبعض، يشمل هذا المصطلح إيران، في حين أنّ البعض الآخر سيتوقف عند الخليج الفارسي[٢٤] [العربي: إضافتنا]؛ وبالنسبة إلى البعض، يشمل [المصطلح] أفريقيا الشمالية،

---

[٢٣] انظر:

Robert C. Kingsbury*: An Atlas of Middle Eastern Affairs* (London: Methuen & Co LTD, 1964).

على الرغم من أنّه ليس حديثا، فهذا الأطلس مفيد لأنّه يحتوي العديد من الخرائط التي تصوّر تطوّر "الشرق الأوسط": العصر القديم؛ العصر الكلاسيكي؛ الفتوحات الإسلاميّة في العهد العثمانيّ وإبّان الحروب الصليبيّة؛ تراجع الإمبراطوريّة العثمانيّة في الحرب العالميّة الأولى؛ سنوات ما بين الحربين؛ وتقسيمات العصر الحديث. وإذا كانت الخرائط تبرز هذه التطورات، فإنّ المؤلفين لم يفصحوا عن أسباب استبعادهم بعض الأقطار من تحديدهم "للشرق الأوسط". انظر كذلك:

Karl K. Barbir, "Alfred Thayer Mahan, Theodore Roosevelt, the Middle East, and the Twentieth Century"; *The Journal of Middle Eastern and North African Intellectual and Cultural Studies,* Binghamton University (N.Y.), Vol. 2, Issue 1 (Spring 2004).

وليبيا، وحتى ما يقع بعدها، فيما يقول آخرون إنّ مصر هي الحد الفاصل"[٢٥]. وهكذا، يقترح الأطلس تعريفا يشمل "تركيا، وإيران، ومصر وليبيا والعربية السعودية، والعراق وسورية ولبنان والأردن وإسرائيل"[٢٦] بحيث لا يمتد إلى شمال أفريقيا ولا إلى آسيا الوسطى.

أما سمات "الشرق الأوسط" المميّزة، فهي كما يلي:

١- يشير الأطلس أولًا إلى الإسلام بصفته دين الأغلبية.
٢- كون هذه المنطقة كانت في غالبها تحت السيطرة – الاسمية أو الواقعية – العثمانيّة.
٣- كون هذه المنطقة تقع في مفترق طرق العالم القديم حيث تلتقي أوروبا وأفريقيا وآسيا.

ومع أنّ التعريف الذي يقترحه الأطلس للمنطقة مقيّد نوعًا ما، فيما يعدّها آخرون أوسع من ذلك بكثير، فإننا نجد فيه حرصًا على تأكيد أنّ هذه السمات ليست حكرا على "الشرق الأوسط". وهكذا، فإنّ الإسلام كما يذكّرنا "يمتدّ شرقا عبر أفغانستان إلى باكستان، حيث هو دين الدولة. ونجده في آسيا الوسطى السوفياتية [سابقا] وفي شبه جزيرة البلقان، ثم يمتدّ عبر شمال أفريقيا نحو المغرب وإلى ما وراء الصحراء نحو الجمهوريات الجديدة غربي أفريقيا. أما الإمبراطورية التركيّة التي منها تشكلت دول الشرق الأوسط، فامتدادها أوسع، إذ يصل شبه جزيرة البلقان بوادي الدانوب"[٢٧].

يقدم المؤرخ فيليب ك. حتي روايته لكيفية تطور المصطلحات الخاصة بالمنطقة، وهو ما يبدو أيضا مثيرا للاهتمام، فهو بدايةً يربط المنطقة بأصل الحضارة الإنسانيّة، مؤكدا أنّه حتى إذا لم يكن هناك اتفاق بين المؤرخين بشأن مكان ولادة الجنس البشريّ، فليس هناك خلاف بينهم بشأن

---

[25] Robert C. Kingsbury, Op. Cit., p. 2.

[26] Loc. Cit.

[27] Loc. cit.

مهد الحضارة، فهو "يقع في المنطقة [...] المسمّاة الشرق الأدنى، وتتكون من الهلال الخصيب – وهو قرنا بلاد ما بين النهرين (العراق الحديث)، وسورية وفلسطين – ومصر، والأناضول (آسيا الصغرى وتركيا)، وبلاد فارس أو إيران"[٢٨]. ووفقا لحتّي، كانت عبارة "الشرق الأدنى" في الأصل اصطلاحا يستعمله الجغرافيون الأوروبيّون يشيرون به إلى "ذلك الجزء في الجنوب الغربيّ القريب من أوروبا"، وقد استعارته أميركا الأقرب إلى الشرق الأقصى. ويقول في هذا الشأن:" "كان هذا هو الاستخدام السائد حتى الحرب العالميةّ الثانية، عندما أنشأت الحكومة البريطانية مقاطعة عسكريّة تمتد من إيران إلى ليبيا ،وأطلقت عليها اسم الشرق الأوسط، وهو مصطلح كان حتى ذلك الحين يشير تقليديًّا إلى الهند والأراضي المتاخمة لها. وبناء على ذلك، جرى إنشاء مركز إمدادات الشرق الأوسط في القاهرة، وأصبح في وقت لاحق مشروعًا أنجلو–أميركيّا، ومن ثمّ وقع تكريس الاصطلاح الجديد"[٢٩].

الخلاف بشأن التحديد

لقد كانت عبارة "الشرق الأوسط" مثيرة للنقاشات دوما بشأن معناها ونطاقها. نلاحظ أيضا نوعًا من التردّد والريبة في مواقف الأكاديميين المهتمين بالمنطقة تجاه هذا التعبير. يشير ديل ف. إيكلمان[٣٠] في مقاربته الأنثروبولوجية إلى ذلك الجدل بين الأخصّائيين، فيذكّرنا بإقرار مارشال هوغسون أنّه من بين جميع المصطلحات المتعلقة بالمنطقة، "من المرجّح أنّ الشرق الأوسط هو

---

[28] Philippe K. Hitti, *The Near East in History* (USA: D. Van Nostrand Company INC., 1961), p. 3.

[29] Loc. cit.

[30] Dale F. Eickelman, Op. Cit.

أفضلها"، على الرغم من أنّه تجنّب استعماله في كتابه "مغامرة الإسلام"، مفضلا اصطلاحا يعدّ "خاليا من كل آثار التمركز الإثني الغربيّ"[٣١].

ويستشهد إيكلمان بمؤرخ آخر، هو نيكي ر. كيدي الذي تساءل في ورقة نشرها سنة ١٩٧٣: "هل هناك شرق أوسط؟"[٣٢]. وخلص أيضا، بعد دراسة الخصائص التي توحد وتقسم المنطقة، إلى أنّ هذا التعبير هو ربما الأفضل. وبالطبع، علينا أن نتذكر النقد الذي قدمه إدوارد سعيد في "الاستشراق"، وإن لم يكن مركّزا فقط على استخدام المصطلح، وإنّما أيضا على النظرة إلى المنطقة في الثقافة والوعي الغربيّين. وفي هذا السياق، فإنّ موقف برنارد لويس –على سبيل المثال– هو ذو معنى. فهو يعترف خاصة بـ"جدوى" عبارة أصبحت راسخة بثبات حتى خارج الغرب، إذ يستخدمها اليوم "الروس، والأفارقة، والهنود، الذين تقع المنطقة –في واقع الأمر– بالنسبة إليهم في الجنوب أو الشمال أو الغرب، بل والأغرب من كل ذلك أن تستخدمها أيضا شعوب الشرق الأوسط نفسها"[٣٣]. وفيما يعترف برنارد لويس بأنّه من الغريب أنّ "منطقةً لها مثل هذه العراقة الحضارية– بل هي من أعرق الحضارات في العالم – ما كان ينبغي أن تعرّف، حتى لنفسها، من خلال تسميات بهذه الجدّة وانعدام اللون"[٣٤]. فهو يرى أنّه سيكون من الصعب العثور على بدائل. وهو يذكر بشكل خاص في الهند محاولة لاستبدال مصطلح "الشرق الأوسط" الأوروبيّ "المتمركز حول الذات" بآخر. وقد سميت المنطقة آنذاك "غربي آسيا". ثم يلاحظ أنّه

---

[31] Marshall G.S. Hodgson, *The Venture of Islam*, Vol. 1 (Chicago: University of Chicago Press, 1974), pp. 60–62. Cited in: Dale F. Eickelman, Op. cit., p. 1.

[32] Nikki R. Keddie, “Is There a Middle east?”, *International Journal of Middle East Studies,* Vol. 4 (1973), pp. 255–71.

[33] Bernard Lewis, *The Shaping Of The Modern Middle East* (Oxford: Oxford University Press, 1994), p. 3.

[34] Loc. cit.

إذا كانت هذه التسمية أكثر قبولًا فإنّها ليست أفضل بكثير، ذلك أنّ "تسمية المنطقة 'غربيّ كيان' هو آسيا ليست أقلّ تضليلا من أن تسمى 'شرقًا أوسطًا' لكيان آخر غير محدد. وعلاوة على ذلك، من التضليل أن تطلق عليها تسمية تقصي مصر، حتى ولو شكليّا"[٣٥].

ونجد في الظروف المحيطة بنشأة هذا المصطلح أيضًا أساسًا لإحجام بعض الأخصائيين عن استخدامه. فكما لاحظ إيكلمان، إنّ هذا المصطلح والعديد غيره مثل "الشرق الأدنى" أو "الليفانت" (المشرق)، لم يبتكرها سكان المنطقة، وإنّما تعود أصولها إلى الإستراتيجيين العسكريّين الأوروبيّين في القرن التاسع عشر. لذلك، تبدو أورو- مركزية على نحو واضح. وفي شرح هذا الرأي، يقول إيكلمان: "في الجغرافيا السياسيّة للجيش الإنكليزيّ على سبيل المثال، كان المقصود بالشرق الأوسط هو القيادة المسؤولة عن المنطقة الممتدة من النيل إلى أوكسوس، فيما كانت الأراضي الواقعة شرقي الأوكسوس تحت سلطة القيادة الهندية. إذا ما نظرنا إلى الحدود الحضارية، فإنّ هذا التقسيم لا معنى له من حيث أنّه يفصل الهضبة الإيرانية التي وحّدها التاريخ (أو على الأقل التفاعل) إلى قسمين. وفي النهاية، فإنّ التسمية لم يكن هدفها إرضاء الأكاديميين"[٣٦].

ويصف إيكلمان مصطلح "شمال أفريقيا" بأنّه "أكثر ملاءمة"، ويقول أيضا إنّه متوافق مع الاصطلاح العربيّ "المغرب العربيّ" على الرغم من أنّه لم يشمل مصر أبدا. غير أنّ هذا المصطلح الأخير -كما يشير- ذو صلة بالجغرافيا السياسيّة الأقدم، تلك التي تهم موجات الفاتحين المسلمين في القرنين السابع والثامن. وقد تبناه الفرنسيّون وأشاعوه.

لكن هنا كذلك، أنشأت الحدود الاستعماريّة فوارق لا تزال مؤثرةً حتى بعد نهاية العصر الاستعماريّ. على سبيل المثال، كانت موريتانيا في عيون الجغرافيّين العرب جزءًا من المغرب

---

35 Ibid., p.4.

36 Eickelman, Op.cit., p. 2.

العربيّ، ولكن بسقوطها تحت الحكم الفرنسيّ، وقع ربطها بأفريقيا الغربيّة الفرنسيّة التي كانت إدارتها في داكار. لهذا، فهو يقول عن موريتانيا: "لم تحتسب في الغالب جزءًا من الشرق الأوسط، على الرغم من حقيقة كون معظم سكانها مسلمين ولغتهم العربية وأنّ البلد عضو في الجامعة العربية"[٣٧]. وفي المقابل، لاحظ أنّ السودان "على الرغم من الأقلية الواسعة غير المسلمة فيه وغير الناطقة بالعربية، لا يوجد ما يعارض عدّه منتميا إلى الشرق الأوسط"[٣٨]. وهذا كذلك نتيجة لظروف التاريخ الاستعماريّ وتقلباته، إذ وقع السودان منذ حوالى عام ١٨٣٠ تحت النفوذ المصريّ، وأصبح نحو أواخر القرن التاسع عشر تحت الحكم الثنائي الأنجلو – مصريّ.

إذًا، النقطة الأولى هنا هي أنّ تحديد "الشرق الأوسط" قد خدم في العديد من الأحيان مصالح القوى الكبرى التي هيمنت على المنطقة. إنّ أيّ بلد قد يعدّ منتميا إلى المنطقة أو واقعا خارجها، وفقا للدور الذي تمنحه إياه في نهاية المطاف مصالح تلك القوى.

إنّ "الشرق الأوسط" المعاصر، في رأي هذا الأنثروبولوجي، يغطي المنطقة الممتدة من الرباط إلى طهران (ما يعادل المسافة بين نيويورك وفيربانكس في ألاسكا). وكما يلاحظ، يشمل "الشرق الأوسط أراض تقع على ثلاث قارات هي أفريقيا وآسيا وأوروبا (الجزء الأوروبي من تركيا). وعندما يقع التأكيد على بعض السمات اللغويّة والدينيّة والسياسيّة مع التعقيدات التاريخيّة للمنطقة، توسع الخريطة لتشمل أفغانستان وباكستان، وعلى الأقل في فترة الماضي القريب: دول آسيا الوسطى السوفياتية التي للإسلام فيها تأثير كبير"[٣٩].

من وجهة النظر التاريخيّة، فإنّ هذه المنطقة الجغرافية التي تشير إليها التسمية المعاصرة تتوافق على نحو وثيق مع الموجة الأولى من الفتوحات الإسلاميّة والإمبراطوريات الثلاث الأكبر زمن

---

37 Loc. cit.

38 Loc. cit.

39 Eickelman, Op. Cit.

توسعها: الأمويون (٦٦١-٧٥٠)، والعباسيون في الفترة الأولى (٧٥٠-٨٠٠)، والعثمانيّون بداية من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر.

ولكن، من وجهة النظر السوسيولوجية والثقافيّة، فإنّ حدود "الشرق الأوسط" تبدو "أكثر تضليلًا". صحيح أنّ المنطقة تعرّف باقترانها بالإسلام أو الأماكن التي كسب فيها الدين الجديد أول المؤمنين. ولكن، مثلما لاحظ إيكلمان أيضا – ونؤيده في ذلك – فإنّ "التفكير بأنّها قلب الإسلام يمكن أن يؤدي إلى نظرة مشوهة للحضارة الإسلاميّة"[٤٠]. فالمسلمون اليوم يتوزعون في منطقة واسعة جدا تمتد من إندونيسيا إلى الفيليبين، وتعبر شبه القارة الهندية- الباكستانيّة، وآسيا الوسطى، وإيران وتركيا والمناطق العربية في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا، وأفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، فضلا عن أوروبا وأميركا وأستراليا. ومن ثمّ، ليس من الدقّة أن نتحدث عن "الشرق الأوسط" بوصفه "قلب الإسلام". والواقع أنّ "مركز ثقل السكان المسلمين في العالم يقع في مكان ما بين باكستان وإيران. بل إنّ أغلبية مسلمي العالم يعيشون في شبه القارة الهندية وجنوب شرقي آسيا"[٤١]. كما أنّه ليس صحيحًا الحديث عن "العالم العربيّ" – أي المنطقة التي يعيش فيها الناطقون بالعربية – وكأنّه قلب الإسلام، وهو ما لا يتوانى عنه بعض الكتّاب العرب، بما يعنيه ذلك من نقلهم رؤية خاطئة – متمركزة حول الذات – عن الحضارة الإسلاميّة.

علاوة عن ذلك، لاحظ إيكلمان أنّ العربية غالبا ما تحدّد بأنها "لغة الإسلام والشرق الأوسط"، وهو أيضا ما من شأنه تحجيم الإسهام الفارسيّ في الحضارة الإسلاميّة. وعلى الرغم من أنّ اللغة العربية هي السائدة الآن في المنطقة، إلا أن الحال لم تكن كذلك دائما عبر التاريخ. فمن ناحية، كان على الفاتحين العرب المسلمين تعريب جميع سكان البلدان المفتوحة؛ وخلال مرحلة الهيمنة العثمانيّة، كانت اللغة التركيّة هي لغة النخبة. من ناحية أخرى، كان انتشار اللغة الفارسيّة يصل

---

[40] Ibid., p. 5.

[41] Ibid., p. 50.

إلى ما وراء المنطقة التي نجدها تسود فيها اليوم. وفي شمال أفريقيا، لا يزال السكان مزدوجو اللسان يستخدمون اللغة البربرية. في مناطق أخرى مثل مصر والنوبة السودانية، نجد "معظم السكان الذكور مزدوجي اللسان، يتحدثون العربية وإحدى اللهجات النوبية"[٤٢]. يذكر إيكلمان مثلًا بلدةً في شمال غربي تركيا عدد سكانها ١٢ ألف شخص، يتحدث جميعهم –تقريبا– "لهجات تركيّة غير مفهومة، ولكن الجيل الأكبر سنا في البلدة لا يزال يتكلم الجورجيّة والشركسيّة"[٤٣]. واللغة الكرديّة منتشرة أيضا على نطاق واسع في تركيا (وكذلك في العراق وسورية وايران). وفي بعض المناطق الحدوديّة، يتحدث النّاس لغتين أو ثلاث لغات (العربيّة والفارسيّة والكرديّة، على سبيل المثال).

إضافة إلى ذلك، هناك لغات أوروبيّة منذ زمن الاستعمار. فاللغة العربيّة هي اللغة الوطنيّة في جميع البلدان المستعمرة سابقا من طرف فرنسا أو بريطانيا العظمى، ولكن السكان المتعلّمين في المناطق الحضريّة مزدوجو اللغة (العربيّة والفرنسيّة أو العربيّة والإنكليزيّة). وفي بعض البلدان، نجد الفرنسيّة والإنكليزيةّ تتنافسان، وهو ما يمكن معاينته بوضوح في مصر ولبنان وسورية.

إن الإسلام ليس الدين الوحيد في "الشرق الأوسط"، على الرغم من أنّه دين الأغلبية. فبالنسبة إلى إيكلمان، يوفر الإسلام للمرء أحيانًا فقط "قاعدةً من الشعور المشترك والهُويّة"[٤٤]. والتلميح هنا هو تجاه الأتراك الذين غالبا "ما حرصوا على الصِّلات التي تربطهم بأوروبا أكثر من تلك التي تربطهم بجيرانهم المسلمين"[٤٥]. وهذا يهم كذلك النخب المصريّة التي أكدت في بعض الأحيان على الهُويّة المتوسطيّة–العربيّة أو "الشرق الأوسطيّة"، وهو أمر مفهومٌ تماما، نظرا

---

[42] Eickelman, Op. Cit., p. 19.

[43] Loc. cit.

[44] Ibid., p. 5.

[45] Loc. cit.

لوجود مجموعة سكانيّة قبطيّة كبيرة[٤٦] في هذا البلد[٤٧]. وبالمثل، فماذا سيكون حال لبنان إذا كانت الهُويّة الوحيدة المنسوبة للبلد هي الإسلام؟ ماذا سيجري للتوازن الهش (الذي أُضعف مرارا) بين المسيحيّين الموارنة، والأرمن الأرثوذكس، والأرثوذكس الكاثوليك، والمسلمين السّنة والشيعة والدروز، وما إلى ذلك؟

وينبغي ألا ننسى أنّ "الشرق الأوسط" وُصف في أحيان كثيرة بأنّه فسيفساء يتعايش فيها جنبا إلى جنب المسيحيّون والمسلمون واليهود وغيرهم من الطوائف.

ومن ثمّ، يتبيّن أنّ "الشرق الأوسط" المعاصر هو إلى حد كبير اختراعٌ لم يظفر بشهادة ميلاده (ببراءته) من شعوب المنطقة، وإنّما من القوى الأجنبية.

السؤال الآن هو: إذا كان هذا اختراعًا، فلمن يمكن أن نعزو أبوّته؟

اختراع من صنع بريطانيا والولايات المتحدة

كتب الصحفي البريطانيّ براين وتيكر عام ٢٠٠٤ مُقرًا بأنّه غير متأكد من قدرته على الإجابة عن السؤال المتعلق بتحديد "الشرق الأوسط"، على الرغم من أنّه يكتب عن المنطقة منذ سنوات. قال وتيكر: "السلوان الوحيد لي هو أنّ وزارة الخارجيّة الأميركيّة ووزارة الدفاع والجيش يشعرون

---

[٤٦] يشير د. عزمي بشارة إلى أنّ العرب هم من أطلق "قبيل وجودهم في مصر على السكّان المحلّيين لفظ القبط (...) إلا أنّ مصطلح قبط أو أقباط أصبح يدل إجرائيًا على المصريّين المسيحيّين في أثناء الوجود الإسلامي واعتناق غالبيّة السكّان المحلّيين الإسلام". انظر: عزمي بشارة، **هل من مسألة قبطية في مصر؟** (الدوحة / بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢), ص. ١٩.

[٤٧] يذكرنا الدكتور عزمي بشارة بأنّ المشكلة القبطيّة تفاقمت عندما بدأ الرئيس الراحل محمد أنور السادات يؤكد أنّه "رئيس مسلم لدولة مسلمة"، فضلا عن عوامل أخرى مثل "انتشار الفكر السلفيّ المتشدّد"، و"الفقر والإحباط والبطالة"، و"غياب مشروع وطنيّ جامع"، وغيرها من الأسباب الأخرى. انظر: المصدر نفسه، ص ٣٩.

بالارتباك مثلي"[٤٨]. وبعد شيء من البحث، لاحظ هذا الصحفي أنّ التعبير هو اختراع. وكان الشخص الأول الذي استعمله كتابيًّا هو الجنرال سير توماس غوردن، موظف المخابرات البريطانيّ ومدير مصرف إمبريال فارس Imperial Bank of Persia في مقالة نُشرت عام ١٩٠٠. حدد غوردن –الذي كان معنيًا بحماية الهند البريطانيَّة ضد التهديدات الروسيّة– موقع "الشرق الأوسط" في فارس (إيران) وأفغانستان. ولكن بعد عامين فقط، وفي أيلول / سبتمبر ١٩٠٢، نشر الأميرال الأميركيّ ألفريد ثاير ماهان (١٨٤٠–١٩١٤) مقالةً في مجلة ناشنال رفيو (لندن) تحت عنوان "الخليج الفارسيّ والعلاقات الدوليّة"، ادعى فيه أنّه يستعمل تعبير "الشرق الأوسط" أول مرة. وحتى ذلك الحين، كان التعبير المستخدم هو "الشرق الأدنى" (بالإنكليزية Near East) ويوازيه المشرق (بالفرنسية Levant). وبدا أنّ الصياغة الجديدة التي استعملها ماهان مرجعها المقاربات الغربية المعنية بالهند انطلاقا من الخليج العربيّ / الفارسيّ[٤٩].

يقدم ماهان في هذا المقال "الرُؤيويّ" في "ناشنال رفيو"[٥٠]، تقييما لأهمية "الشرق الأوسط" الإستراتيجية في الصراع العالميّ المتوقع بين بريطانيا العظمى (الذي ستشترك فيه كذلك الولايات المتحدة) والقوة البحريّة المتصاعدة لألمانيا الإمبريالية والخطر البريّ الذي تمثّله روسيا. ويقر باربر (أحد معاصري ماهان ممن اهتموا بالتعليق على كتاباته) أنّ ماهان من أوائل الأشخاص الذين أدركوا أهمية هذه المنطقة ضمن إستراتيجية جديدة شاملة للولايات المتحدة تُلزمها الانخراط في اكتشاف بُعدٍ جديد لدورها على المسرح العالميّ. ولما كان ماهان من المفكرين البارزين في

---

[48] Brian Whitaker, “From Turkey to Tibet”, *The Guardian,* February 23, 2004.

[49] Carl Pearston, “Whatever Happened To The Middle East”, *The Houston Review,* April 4, 2001.

[٥٠] هي "مجلة إمبريالية بريطانية" حسب كارل بربير. انظر:

Karl K. Barbir; op. Cit.

علم الجغرافيا السياسيّة، فإننا نلاحظ أنّ مولد "الشرق الأوسط" كمفهوم ارتبط منذ البداية بتطور التفكير الجيوبوليتيكي والإستراتيجي الغربيّ وحاجاته. وحتى يقع تحديد دور وأهداف الفاعلين (الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى)، كان لابد من تعريف المجال الذي سيكون فيه هذا الدور، بحيث يصبح موضوعًا للمراقبة والمعرفة. هذا ما حاول غوردن وماهان القيام به عندما اخترعا المفهوم. إلا أنّه من الواضح أنّ غوردن كان "الأب" لأنّه كتب قبل ماهان بعامين.

غير أنّ هذا ليس رأي برنارد لويس، الذي قال: "اخترع المؤرخ البحريّ الأميركيّ ألفريد ثاير ماهان مصطلح **الشرق الأوسط** عام ١٩٠٢ لتسمية المنطقة بين الجزيرة العربيّة والهند، ومركزها – من وجهة نظر الإستراتيجي البحريّ – في الخليج الفارسيّ. وتبنت هذا التعبير الجغرافي الجديد صحيفة **التايمز** (الصادرة في لندن)، ولاحقا الحكومة البريطانيّة، ودخل حيز الاستعمال العام مع المصطلح الأقدم منه قليلا **الشرق الأدنى**. إنّ التسميتين جديدتان وغير عصريتين؛ فهما من بقايا عالم تحتل فيه أوروبا الغربيّة المركز وتجمع المناطق الأخرى حولها"[٥١].

ساعد المفهوم الذي اخترعه غوردن (وتبعه ماهان) في الواقع الأميركيّين والبريطانيّين في تناول الموضوع وتطوير استكشافه. حتى ذلك الحين، كان الخليج الفارسي – كما سمي في الأدبيات الأنجلو– سكسونية – المنطقة الرئيسية في خط إستراتيجي يربط أوروبا بالهند. ووفقا لنظرية ماهان، فهذه المنطقة تحتل قلب هذا المجال.

تعود تجربة ماهان الأولى في "الشرق الأوسط" إلى عام ١٨٦٧ عندما انتقل إلى عدن على متن السفينة الحربية الأميركيّة "ايروكوا". تضمّن التقرير الذي وضعه عن سكان جزيرة جوهانا (جزر القمر) في رسالة إلى أبيه ملاحظاته عن شعبها. قدمهم بأنّهم عرب "اختلط فيهم الدم الزنجي"، ومسلمون، ووصفهم بأنّهم "برابرة." وفي رسالة أخرى وجهها من عدن، قال عن الاحتلال البريطاني الذي بدأ عام ١٨٣٨: "كان هذا من أعمال إنكلترا التي لا يمكن تبريرها نظريّا إلا أنّ

---

[51] B. Lewis, op. Cit.3.

ضرورة الحالة هي التي تبررها. فهل يمكن أن تقف مجموعة من المتوحشين في وجه تجارة العالم؟"[٥٢]

إن هذا التصور "**للآخرين**" بأنّهم "**برابرة**" ليس استثنائيًّا قطعًا، فلا بدّ أنّ ندرك قربه من مدرسة فكرية رافقت المد الاستعماريّ منذ القرن التاسع عشر، كان إدوارد سعيد تولى تحليل بعض أدبياتها في كتابه "الاستشراق." علاوة على ذلك، فإنّه موقف ظهر في كل الحضارات الفاتحة، بما فيها الحضارة العربيّة الإسلاميّة، في فترة توسعها. وهو ينطوي على تبريرها الذاتيّ المستند إلى فكرة أنّ "كل شيء صادر عني جيد ومتفوق أخلاقيًّا، ولذلك، فهو مفيد للآخرين كذلك".

أكد ماهان وجهة النظر هذه عندما كتب قبل عامين من وفاته في "نيويورك تايمس" مساندا الاستعمار الفرنسيّ لشمال أفريقيا: "هناك، 'النجاحات'<... ليست نجاحات القوة أو التملّك فحسب. إنها تعني التخليص الماديّ لممتلكات سيئة الوضع من أجل مصلحة البشريّة عموما"[٥٣].

كانت لدى ماهان رؤية متشائمة لمستقبل "الشرق الأوسط". وعلى الرغم من أنّ تلك الرؤية كانت مصطبغةً بالنزعة الإمبريالية، فإنّ تشاؤمها لم يكن خاليًا تماما مما يبرره. فالحقيقة أن معظم الرّحالة الغربيون في عصره لم يعشقوا شرقًا غامضًا كان يسوده الجهل والاستبداد. وكيف ينكر المرء حقيقة أنّ سكان المنطقة كانوا متخلفين؟ ألم يشجّع وضعهم الدول الأوروبيّة على الغزو بهدف "تمدينهم"؟ ينطوي الاستعمار بلا شك على خطة أو أكثر للنهب على نطاق واسع، ولكن من الواضح أنّه في عالم يكافح فيه الناس من أجل إحراز السلطة والقوة، ستكون أيّ منطقةٍ ضعيفةٍ ومتخلفةٍ وغنيةٍ بالثروات مغريةً دائما وداعية للمغامرات الإمبريالية والاستعماريّة. وفوق ذلك، وعلى الرغم من أنّ شعوب "الشرق الأوسط" ماتزال ترفض دعم بعض المشروعات التي

---

[52] Karl K. Barbir, op. Cit.

[٥٣] المرجع نفسه.

تبدو مريبة، فإنّها كثيرا ما تنحاز على أساس عاملين: ١. حين تدرك أنها الطرف الأضعف، مما يجعلها الأكثر عرضة للخطر. ٢. حين تدرك أنّ الدول الغربيّة ستتدخل فقط من أجل مصالحها، أي من أجل إحراز المزيد من النفوذ.

وعلى الرغم من أنّ تحليل نوايا ماهان أو تحيزاته ليست محل اهتمامنا هنا، فإنّنا نتساءل: هل كان مخطئا عندما كتب واصفا المدن على ساحل آسيا الصغرى التي كانت آنذاك تحت الحكم العثمانيّ، بقوله: "[...] إنّ سوء الحكم يُبقي المنطقة برمتها في حالة معدمة، فيما تركت قرون من سوء الحكم ذاك قلةً من الأمل لدى الناس، بحيث انعدمت لديهم الرغبة حتى في تحسين أوضاعهم"[٥٤]. ويمكننا اليوم، بفضل الإدراك المتأخر، أن نعُدّ هذه الرؤية واقعية. بل إننا نتساءل حتى إن لم يكن هذا الكلام ينطبق إلى حد ما على الوضع الراهن. فلنتصور هذه الجملة خارج سياقها التاريخيّ. لنتصور أنّ أحدًا لم يبلّغنا أن ألفريد ماهان هو الذي قالها. ألم يكن بالإمكان أن يكتبها أحد معاصرينا كتعليق على الأوضاع في عدة دول عربية؟

إنّنا –بلا ريب– ندرس الماضي من أجل تحسين فهمنا للحاضر، ويرينا ماضي العلاقات الغربيّة بالمنطقة إلى أيّ حدّ يمكن لبعض أنماط الفكر والممارسات أن يتكرر على نحو غير محدد، ما دام لم يبرز بشكل مهيمنٍ عنصرٌ جديد قادر على تغيير حال تلك العلاقات. وإذا كان "الشرق الأوسط" في بداية القرن الحادي والعشرين لا يزال يعدّ "نظامًا فرعيًّا"، من حيث اعتماده الواسع على الخارج، سواء من أجل نموه الاقتصاديّ أو بقاء نظمه السياسيّة، فإنّ هذا يعني أنّ بعض علاقات التبعيّة والزبونيّة لا تزال تكرّر نفسها. لذا، فلا نستبعد إطلاقًا إمكانية العثور على أجوبة عن بعض أسئلة الحاضر في كتابات بداية القرن الماضي.

على سبيل المثال، يَعدّ ماهان المنطقة التي يطلق عليها "الشرق الأوسط" جزءًا من "نظام دوليّ لسياسات القوة". لذا قال: "بما أنّ اصطلاح 'السياسات العالميّة' يعبّر أكثر فأكثر عن واقع هذه

---

[٥٤] المرجع السابق.

الأيام، فقد ازدادت بذلك ضرورة أن ينظر إلى مراكز المصالح المتعددة غير منفصلة عن بعضها البعض، بل يرتبط كل واحد منها بالكل، كونها تساهم في ميزان قوى عام للوضع القائم، يتعيّن العمل من أجل سلامته وفقا للطبيعة وليس عكسها"[٥٥].

يعتقد ماهان كذلك أنّ الدول المجاورة للخليج العربيّ/الفارسيّ، وفارس (إيران) نفسها، وتركيا، وبعض المجتمعات العربيّة الصغيرة، غير قادرة على توفير الأمن التجاريّ والعسكريّ بحسب الحاجة. وقد رأى أيضا أنّ روسيا وبريطانيا العظمى هي من الدول الخارجيّة المهتمة خاصة بمسائل الأمن في الخليج. ويرى أنّه كان ينبغي على حليفة تركيا إذ ذاك، ألمانيا، الطامحة إلى مد سكة حديد إلى الكويت، أن تتعاون مع بريطانيا العظمى لإبقاء روسيا خارج الشرق الأوسط. وقد أيّد ماهان استمرار نهج السياسة الإمبراطورية البريطانيّة، كما وضعها دزرائيلي وغلادستن، أي تأمين خطوط مواصلات مع الشرق خصوصا باحتلال مصر منذ عام ١٨٨٢.

جاء حديث ماهان عن "الشرق الأوسط" أول مرة إذًا ضمن هذا السياق من التخطيط الجيوسياسيّ، إذ قال: "جنوب فارس هي في الواقع الخطوة المنطقيّة التالية التي تأتي بعد مصر، على الرغم من أنّ ذلك لا يعني أن تكون الصلة هي نفسها. وبالترابط مع هذا التقدم التجاريّ والسياسيّ، هنالك ضرورة التأمين المحلي للنشاط البحريّ عند الحاجة. إنّ الشرق الأوسط، إذا أمكنني استعمال مصطلح لم أره من قبل، سيحتاج يوما إلى ما يمكن أن يكون مالطا وجبل طارق الخاصين به [...] ويجب أن تكون لدى البحرية البريطانيّة قاعدة لتركيز قوتها، إذا دعت الضرورة، في جوار عدن والهند والخليج"[٥٦].

تتضح الآن نقطتان هامتان: ١- لغرض بيان المشروعات الكولونيالية، استخدم ماهان أول مرة كما يعتقد، مفهوم "الشرق الأوسط". ٢- لم يحدد ماهان منطقة جغرافية على نحو دقيق، بل رأى

---

[٥٥] المرجع نفسه.

[٥٦] المرجع السابق.

"الشرق الأوسط" بوصفه "منطقة غير محددة تحرس جزءًا من الطريق البحري من السويس إلى سنغافورة"[٥٧].

إذًا، لنقل بإيجاز إنّ اهتمام سير توماس غوردن بحماية الهند البريطانيّة من تهديدات روسيا عام ١٩٠٠ جعله يحدد "الشرق الأوسط" بين إيران وأفغانستان. بعد عامين، أي في ١٩٠٢، وسّع ماهان المفهوم معتقدا أنّه قد اخترعه. وتبعهما فالنتاين شيرول الذي زاد في توسيع منطقة الاهتمام. فبعد فترة قصيرة من صدور مقال مهان في مجلة "ناشنال رفيو" عام ١٩٠٢، نشرت صحيفة "التايمس" الصادرة في لندن سلسلة من ٢٠ مقالًا كتبها فالنتاين شيرول. ظهر في هذه السلسلة العنوان التالي: "المسألة الشرق الأوسطيّة"، وهو ما يشير إلى أنّ شيرول قد قرأ ما كتبه غوردن و/أو ماهان، وأنّه استلهم منهما. ونحن نعلم أنّ ماهان يقرّ بخبرة شيرول في المسائل الآسيويّة. وعلى أيّ حال، فقد طوّر شيرول مفهوم "الشرق الأوسط" بوصفه منطقة جغرافية مع الاعتراف بمساهمة ماهان في وضع الاصطلاح وفي الإستراتيجية. لقد "وسعت المقالات مفهوم ماهان ليشمل كل المقتربات البريّة والبحريّة إلى الهند وفارس والخليج الفارسيّ [العربيّ] والعراق والساحل الشرقيّ لشبه الجزيرة العربيّة وأفغانستان والتبت"[٥٨].

عندما نشبت الحرب العالميّة الأولى، كان مصطلح "الشرق الأوسط" قد غدا راسخًا في القاموس الإنكليزيّ وفقا لتعريف ماهان– شيرول. ولكن، فيما كان "الشرق الأدنى" يوجّه التركيز نحو تركيا، نجد "الشرق الأوسط" يوجّه التركيز نحو الهند، فيما "الشرق الأقصى" يوجّه التركيز نحو الصين. وهكذا فقد بدا الشرق مقسمًا إلى ثلاثة أقسام.

من الواضح أنّ الصلة التي ربطت كل تلك النقاشات المبكرة عن "الشرق الأوسط" كانت تتعلق بالوسيلة التي كان من شأنها إبقاء الهند خاضعة للسيطرة البريطانيّة. كان ذلك هو الشغل الشاغل

---

[٥٧] المرجع نفسه.

[58] B. Whitaker, Op. cit.

بالنسبة إلى توماس غوردن الذي ابتكر المصطلح. ومن الغريب أنّ هذا النّمط لا يزال حيًا على الرغم من أنّ هدفه الأوليّ (حماية الطريق إلى الهند) لم يعد له وجود، ولم يعد قائما ما يوحد بلدانًا متباينة تباين أفغانستان ولبنان. من هنا، يبرز الاستنتاج التالي: إنّ الحديث لا يدور –في الواقع– عن منطقة بقدر ما يدور عن مفهوم اخترع لخدمة سياسات قوى خارجيّة، وهذا هو السبب الكامن وراء التّغيّر المستمر في الشكل العام وفقا لحاجات المصالح الإستراتيجيّة لهذه القوى.

استعمل مصطلح "الأوسط" في الأصل لتمييز المنطقة المسماة (الهند وما وراءها): ١– عن المنطقة المسماة "الشرق الأقصى" (الصين وما وراءها) ٢– وعن المنطقة المسماة "الأدنى" (التي تشير إلى أراضٍ شرقي البحر المتوسط كانت تدعى: ليفانت Levant). وعند نهاية الحرب العالميّة الأولى، أصبح الفرق بين "الأدنى" و"الأوسط" غير واضح بسبب انهيار الإمبراطورية العثمانيّة وصعود القوميّة العربيّة. مُنحت بريطانيا العظمى السيطرة على فلسطين وشرقي الأردن والعراق، بينما نالت فرنسا السيطرة على سورية ولبنان بموجب معاهدة سايكس– بيكو. كانت المصالح الإستراتيجية البريطانيّة في مفترق طرق. ومن المحتمل أنّ حماية الطريق إلى الهند كانت لا تزال مهمة، إلا أنّ اكتشاف النفط سيغير الصورة برمتها.

اقترحت **الجمعية الجغرافية الملكية** آنذاك توسيع المنطقة التي يشملها "الشرق الأوسط" نحو الغرب لتضم كل مناطق الناطقين بالعربيّة إضافة إلى تركيا. وقد جرى تبنّي الفكرة في لندن. وفي عام ١٩٢١، أسس ونستن تشرشل، وزير المستعمرات آنذاك، شعبة الشرق الأوسط لإدارة شؤون فلسطين وشرقي الأردن والعراق (أي آخر ما حصلت عليه بريطانيا من الأراضي).

أما السؤال الذي يتعين أن نجيب عنه الآن، فهو التالي: إذا كان البريطانيّون قد مارسوا مثل هذا التأثير في إنتاج مفهوم يقدّم تصورًا للمنطقة، فما هو مدى اختلاف نهجهم عن الأميركيّين؟

النهج البريطاني: العالم العربي هو قلب "الشرق الأوسط"

من المثير للدهشة حقاً أنّ الموسوعة البريطانيّة لا تذكر غوردن بوصفه مبتكر هذا المفهوم، ولا تذهب أبعد من الحرب العالمية الثانيّة في البحث عن أصله. وما نجده تحت مدخل "الشرق الأوسط" هو ما يلي: "مصطلح أصبح في الاستخدام الحديث، الذي يعود إلى الحرب العالمية الثانية، يُطلق على الأراضي الواقعة حول الطرف الشرقي للبحر المتوسط بما فيها تركيا واليونان إضافة إلى إيران، ثم في وقت لاحق، الجزء الأكبر من شمال أفريقيا"[٥٩].

ومع ذلك، فإنّ **الموسوعة البريطانية** لم تغفل التذكير بأنّ أوائل الجغرافيين الحديثين قد سمّوا الجزء المركزيّ من هذه المنطقة "الشرق الأدنى"، إذ إنّهم –كمعظم الأوروبيّين– قسّموا كتلة أراضي الشرق الكبرى إلى ثلاثة أقسام سميت وفقا لبعدها النسبيّ عن أوروبا. وهكذا، ولدت المناطق التالية: الشرق الأدنى، الشرق الأوسط، والشرق الأقصى. وتصف **الموسوعة البريطانية** هذه المصطلحات بأنّها "متمركزة حول الذات" و"مفيدة" في ذلك الوقت، إذ إنّ "الشرق الأوسط" القديم يبدأ في واديي دجلة والفرات أو عند الحدود الغربيّة لإيران، ويمتد نحو بورما وسيلان"[٦٠].

غير أنّ التغيير في الاستخدام حدث بعد أن ارتبط مصطلح "الشرق الأوسط" بالقيادة العسكريّة البريطانيّة التي أُسّست في مصر، توقعا لنشوب الحرب العالميّة الثانية. وخلال تلك الحرب، أصبح استعمال هذه التسمية واسع الانتشار، على الرغم من أنّها كانت "تفتقر إلى الدّقة" بحسب **الموسوعة البريطانية**، وبقيت التسمية تُستخدم كذلك في فترة ما بعد الحرب، على الرغم من تنصل الجمعيتين الجغرافيتين البريطانيّة والأميركيّة منه.

---

[59] *Encyclopedia Britannica*, Vol.15 (London: William Benton Publisher, 1972), Middle East: p. 407.

[60] Loc. Op. cit.

ترى **الموسوعة البريطانية** أنّ مفهوم "الشرق الأوسط" لا يشير إلى وحدة متجانسة[٦١]. وفي وصفه، تقول بصراحة إنّها "تسمية مصطنعة أدخلتها القوى الخارجيّة إلى المنطقة"[٦٢]، عندما بدأت تخطط "سياسةً منسقة" في هذا الجزء من العالم. هكذا، فإنّ "الشرق الأوسط" كما عُرف بدءًا من الحرب العالميّة الثانية، يشمل "تركيا واليونان وقبرص وسورية ولبنان والعراق وإيران وفلسطين (إسرائيل حاليا) والأردن والجمهورية العربيّة المتحدة (مصر) والسودان وليبيا ودول شبه الجزيرة العربيّة نفسها: المملكة العربية السعودية والكويت واليمن ومسقط وعمان والبحرين وقطر وما يسمى بالمشيخات المتصالحة [الإمارات العربية المتحدة اليوم] واليمن الجنوبي"[٦٣]. إلا أنّ تطوراتٍ جديدة زادت في توسيع التعريف ليشمل: "البلدان العربيّة الغربيّة الثلاثة تونس والجزائر والمغرب، وكلها كانت مرتبطة بفرنسا سابقا"[٦٤] لأن سياساتها الخارجيّة أصبحت "مرتبطة في المشاعر" بالدول العربيّة الأخرى. علاوة على ذلك، تشير **الموسوعة البريطانية** إلى أنّ بعض العناصر الجغرافية والثقافيّة والدينيّة غالبا ما ترغم السياسيّين وغيرهم من المراقبين على اعتبار أفغانستان وباكستان مرتبطة ارتباطا وثيقا بـ "الشرق الأوسط".

لكن، إذا كان هذا التعريف البريطانيّ لـ "الشرق الأوسط" واسعًا على نحو كافٍ ليشمل اليونان[٦٥]، وشمال أفريقيا وأفغانستان وباكستان، فإنّنا نلاحظ أنّ المفهوم كان مرتبطًا حقًا

---

[61] Loc. Op. cit.

تؤكد هذه الموسوعة على أنّ هذا المفهوم ينطوي على تجانس أقلّ من غيره مثل: أوروبا، أو أميركا اللاتينية.

[62] Loc. Op. cit.

[63] Ibid., pp. 407–408.

[64] Ibid., p. 408.

[٦٥] قد يجد المرء أنّه من الغريب إدراج اليونان في هذا التعريف لمنطقة الشرق الأوسط، ولكن الموسوعة تذكّرنا بأنّ "مسألة الشرق الأوسط (وكان يسمى آنذاك الشرق الأدنى) برزت في شكلها الحديث لأول وهلة عندما بدأ اليونانيّون تمردهم ليؤكدوا استقلالهم عن الإمبراطورية العثمانيّة في عام ١٨٢١". وتضيف الموسوعة ما يلي: "على الرغم من أنّ استقلال اليونان هو أمر واقع منذ فترة طويلة، فإنّ الجغرافيا وغيرها من العوامل تجعل اليونان تنخرط بشكل وثيق في ثروات الشرق الأوسط ..." (Loc. Cit.).

بالمتطلبات الإستراتيجية والترتيبات العسكريّة، فضلا عن الحقائق السياسيّة والثقافيّة والاقتصاديّة، وجميعها يثبت أنّه إذا تغير النطاق باستمرار، فقد بقي المركز نفسه.

بالتأكيد، تقر **الموسوعة البريطانية** أنّ هذا المركز لا يزال يمتلك عنصر ثبات حقيقي: "إذا كان مصطلح الشرق الأوسط مصطنعًا ودخيلًا، فإنّ مصطلح العالم العربيّ، الذي يشير في التطبيق الملائم لمصطلح الشرق الأوسط غالبا قلبه، يمثّل واقعًا يؤثر تأثيرا قويًّا في حياة النّاس الذين يشير إليهم وفي مصالحهم ومشاعرهم، ويجب على كل الحكومات في تعاملها مع دولة عربيّة أو أكثر أن تأخذ ذلك في الحسبان"[٦٦].

هكذا إذًا، لدينا تصور بريطانيّ مُعترف به بوصفه مرجعًا أكاديميًا يؤكد أنّ العالم العربيّ هو قلب الشرق الأوسط[٦٧]. وهو تصور يقرّ أنّ تعبير الشرق الأوسط دخيل، وأنّه يرتبط بالمصالح الإستراتيجية للدول الغربية. ويتضمن التصور إقرارا بأصالة مركز "العالم العربيّ" كتعبير عن شيءٍ حقيقي مقابل مصطلح "الشرق الأوسط"، الذي يتغير وفقا لتغيّر المصالح. لذا، ليس من الغريب أن يلقى مصطلح "الشرق الأوسط" معارضة –أحيانًا– في العالم العربي. والآن، ماذا يمكن أن نضيف بشأن النهج الأميركيّ؟

---

66 Loc. Cit.

٦٧ "ما من حكومة" –تقول الموسوعة– "تستطيع إقامة علاقات وثيقة مع العراق والأردن ومصر أو الجزائر، على سبيل المثال، دون أن تكون مضطرة لمراعاة العلاقة القائمة بين هذه الأخيرة والدول العربية الأخرى". (Loc. Cit.).

النهج الأميركيّ: تعقيدات منطقة "تفاعلاتها بسرعة العدوى"

كما فعلنا مع النهج البريطانيّ، نعرض في البدء تعريف الموسوعة الأميركيّة[٦٨]. لكن، بما أنّ الموضوع الذي نعالجه هنا يتعلق بالسياسة الخارجيّة للولايات المتحدة، فسيتعيّن علينا تتبّع المفهوم نفسه في الأدبيات الرسمية.

نجد المقال عن "الشرق الأوسط" في الموسوعة الأميركيّة أطول وأكثر تفصيلا من مقال الموسوعة البريطانيّة. والواقع أنّه يزيد على عشر صفحات (بينما المقال البريطانيّ لا يتجاوز صفحتين)، إلا أنّنا لن نحاول تلخيصه. ويكفي الحديث بإيجاز عن تطور المفهوم، بهدف ملاحظة الفروق –إن وجدت– مع التصور البريطانيّ الذي يعدّه بعض المراقبين أهم مصدر للتأثير على السياسة الخارجيّة الأميركيّة. يشير المقال إلى الرائد الأميركيّ (وليس البريطانيّ) في إطلاق المفهوم، أي ألفريد ثاير ماهان، فيما يُلاحظ "الافتقار" إلى القبول العالميّ بمعنى واحد "للشرق الأوسط" وحدوده. وتذكر الموسوعة الأميركيّة – كما سنبين تاليا – أنّ وزارة الخارجية الأميركيّة تواصل استخدام مصطلح الشرق الأدنى. إلا أن الفرق الرئيس مع تعريف الموسوعة البريطانيّة ربما يكون في عدد الدول المشمولة بالمصطلح. نجد هنا ذكرًا لتركيا بجانبيها الأوروبيّ والآسيويّ (ولكن ليس اليونان)، والبحرين وقبرص وإيران والعراق وإسرائيل والأردن والكويت ولبنان وعمان وقطر والسعودية وسورية والإمارات العربيّة المتحدة واليمن الجنوبيّ واليمن الشماليّ. وفي ما يخص أفريقيا، ذكرت مصر وليبيا والسودان.

---

[٦٨] وهي موسوعة ذات صيت كبير أيضا، يعود إصدار أول طبعاتها إلى سنة ١٨٢٩. انظر:

The Encyclopedia AMERICANA: International Edition (NY: Grolier Incorporated, 1985). Vol.19, "Middle East": pp. 71– 80.

هكذا، وبغض النظر عن بعض المعلومات التي تحتاج إلى التحديث[٦٩]، نلاحظ أنّ تونس والجزائر والمغرب غير مشمولة في تعريف الموسوعة الأميركيّة للشرق الأوسط. وهذا هو أيضا حال أفغانستان وباكستان. غير أنّنا نجد أنّ قبرص قد حلت محل اليونان.

تشير هذه المقاربة إلى وجود ثلاث مجموعات لغويّة: الساميّة والإيرانيّة والتركيّة[٧٠]، مع عدم إهمال الإشارة إلى أقسامها (في اللغات واللهجات) وإلى وجود عوائل لغويّة أخرى (مثل اليونانيّة الحديثة في قبرص والبربريّة في شمال أفريقيا[٧١]، والنوبيّة في السودان) أو اللغات التي بقيت تُستعمل في الطقوس الدينيّة، من مثل القبطيّة والسريانيّة.

لدينا كذلك بعض الفقرات في الموسوعة الأميركيّة عن الأديان في الشرق الأوسط، وإقرار بأنّ الإسلام هو دين ٩٠% من سكان المنطقة التي ولدت فيها ثلاثة أديان توحيدية ما يزال أتباعها موجودين في الوقت الحاضر.

---

[٦٩] لقد استندت عند كتابة هذا البحث على نسختي الموسوعتين المتوفرتين في المكتبة الأميركيّة بباريس، أي: نسخة ١٩٧٢ (بالنسبة إلى الموسوعة البريطانية) و١٩٨٥ (بالنسبة إلى الموسوعة الأميركيّة). ومن النافل القول إن الإصدارات الأحدث ستأخذ في الاعتبار ما استجدّ في المنطقة. على سبيل المثال، لم يعد أحد في أيامنا يسمي دولة الإمارات العربية المتحدة: "المشيخات المتصالحة"، وبالمثل لم يعد هناك رسميا يمن شماليّ ويمن جنوبيّ منذ توحيد البلاد. ولتجنب الجدل وسوء الفهم، علينا أن نتذكر أنّه منذ التوقيع على اتفاقات أوسلو، أصبحت أراضي الحكم الذاتيّ الفلسطينيّ واقعًا سياسيًّا.

[٧٠] اللغة العربية ليست اللغة السامية الوحيدة. علاوة على العبرية، التي تستخدم في إسرائيل بخاصة، تواصل بعض المجموعات التّحدث بالآرامية والسريانية (التي كانت تستخدم في زمن السيد المسيح). وبعثت في القرن الحادي عشر اللغة الفارسيّة، التي غطّت عليها لغة الفاتحين العرب طوال قرون. غير أنّ الفارسيّة تبقى لغة أغلبية الإيرانيّين، وهي تنتمي إلى مجموعة لغويّة هنديّة– أوروبيّة على الرغم من تعديلها باستخدام الأبجديّة العربيّة. واللغات الأخرى التي تنتمي إلى المجموعة نفسها هي: الكردية (التي تستخدم في تركيا وإيران والعراق وسورية)، والبلوشستانية (التي تستخدم في أفغانستان وفي بعض المناطق في إيران)، والتركية هي اللغة الرسمية في تركيا، وتستخدمها كذلك أقليات في إيران والعراق، وقد غير مصطفى كمال أتاتورك كتابتها من الحروف العربيّة إلى اللاتينيّة.

[٧١] تقول الموسوعة الأميركيّة: "في أنحاء في ليبيا"، لكن هذا ليس دقيقا. يجب أن نؤكد أن البربريّة تستخدم في ليبيا أقل من الجزائر والمغرب. غير أنّنا يجب أن نضيف أنّ الاسم القديم للبربر هو الليبيون ومن هنا ربما كان الخلط في التسمية.

أما فيما يخص المقاربة الرسمية الأميركيّة، فهناك على الأقل اثنتان، الأولى تتبعها وزارة الخارجيّة، والثانية خاصة بوزارة الدفاع، وكلاهما تعدّان مسؤولتين عن السياسة الخارجيّة في المنطقة.

كما بيّنا سابقا، كانت وزارة الخارجيّة الأميركيّة تبنت في وقت باكر مصطلح الشرق الأدنى، ومنذ ذلك الحين لم تبد ميّالة كثيرا إلى تغييره، على الرغم من أنّ التطبيق مختلف قليلا: ففي الخطب السياسيّة، وكذلك في مراكز دراسة السياسات وفي الإعلام، ثمة استخدام متزايد تدريجيًّا للتعبيرين: "الشرق الأوسط الكبير Great Middle East " و "الشرق الأوسط الأوسع Broader Middle East".

إلا أنّ الشرق الأدنى في تصور وزارة الخارجيّة أكثر ارتباطا بـ "اللعبة الكبرى" بين القوى الدوليّة منه بتعريف علميّ للمنطقة. و لعلهم عندما شرعوا في الحديث عن الشرق الأدنى في وزارة الخارجيّة، كانوا لا يزالون بعيدين عن تصور أنّ الولايات المتحدة سترث المركز المؤثر للدول الأوروبيّة في هذا الجزء من العالم. وفي الحقيقة أنّ القانون الصادر عام ١٩٠٩ معلنا تأسيس مكتب الشرق الأدنى في وزارة الخارجيّة نص على أن يهتم المكتب "بإدارة شؤون ألمانيا والنمسا–المجر وروسيا ورومانيا والصرب وبلغاريا والجبل الأسود وتركيا واليونان وإيطاليا وإثيوبيا وفارس ومصر والمستعمرات التابعة لتلك الدول"[٧٢]. كان ذلك تجميعا جغرافيا لافتا للنظر، يبدو منطقه في بادئ الأمر صعب الفهم.

ولكن، إذا تأملنا في الاتجاهات التاريخيّة التي اجتازت أوروبا وآسيا وأفريقيا والتفاعلات بين هذه القارات الثلاث، يصبح الشرق "أقرب" مما يبدو. خذ على سبيل المثال التعريف الذي كان يقترحه معهد الشرق الأوسط *Middle East Institute*[٧٣]: "منطقة تضم جنوب شرقي آسيا وشمال شرقي

---

[72] B. Whitaker, Op. cit.

[٧٣] مركز بحوث أميركيّ معروف لا يدّعي تمثيل أيّ موقف رسمي، وهو ينشر مجلة الشرق الأوسط *The Middle East Journal*.

أفريقيا، تمتد من المغرب إلى باكستان بما في ذلك القوقاز"[٧٤]. إن ذلك ليس سيئًا، إلا أنّنا نتساءل: ماذا بشأن تركيا التي تقع بين آسيا وأوروبا؟ على الرغم من أنّها لا تزال مرشحة للانضمام إلى الاتحاد الأوروبيّ، فإنها لا تقل مشاركة في كل شؤون "الشرق الأوسط" مهما كان التعريف وذلك قبل ظهور "المسألة الشرقية" في القرن التاسع عشر. يبدو لنا واضحا أنّ تركيا **دولة مهمة** لفهم تاريخ "الشرق الأوسط" وسوسيولوجيته الحالية مما يقود إلى الاستنتاج أنّ جزءًا من أوروبا يقع في الشرق الأوسط.

من الناحية الأخرى، يؤكد التعريف الذي اقترحه معهد **الشرق الأوسط** حقيقة أنّ هذا الإقليم كان مهد الحضارة وأديان التوحيد الثلاثة. وهذا يذكّرنا بأنّ تاريخ المنطقة قد تأثر بالفرس والإغريق والإمبراطورية الرومانيّة والصليبيّين والمماليك والعثمانيّين والأوروبيّين وكثيرين آخرين. وقد نال معظم دول المنطقة استقلاله أثناء القرن الماضي، وما يلفت الانتباه في هذا التعريف هو "جيوبوليتيكية التغيير". وفي الواقع –بحسب رأي معهد الشرق الأوسط– فإنّ "الشرق الأوسط" قد شهد تغيّرات غير منصفة منذ اكتشاف النفط وتأسيس دولة إسرائيل ونشوب الصراع الإسرائيليّ–العربيّ، والنهضة الإسلاميّة والثورة الإيرانيّة والحرب بين العراق وإيران وحروب أفغانستان والعراق. لذا يبقى مستقبل المنطقة غير مؤكد. ولذلك، كنا نجد الدول الثلاث والثلاثين التالية ضمن التعريف الذي كان معهد الشرق الأوسط ينشره على موقعه: "السعودية، أفغانستان، الجزائر، أرمينيا، أذربيجان، البحرين، جيبوتي، مصر، الإمارات العربيّة المتحدة، جورجيا، إيران، العراق، إسرائيل، الأردن، كازاخستان، الكويت، قيرغيزستان، لبنان، ليبيا، موريتانيا، المغرب، عمان، أوزبكستان، باكستان، فلسطين (الأراضي الفلسطينيّة)، قطر، السودان، سورية،

---

[٧٤] لم يعد هذا التعريف موجودا على موقع المعهد الإلكتروني. كان آخر عهد للباحث به يوم ٢٦ حزيران / يونيو ٢٠١١. ثم أصبح الرابط نفسه يقود إلى أقاليم، هي الخليج، المشرق، شمال أفريقيا، وغربي آسيا:

http://www.mei.edu/Library/OnlineResources/Countries.aspx (جرى الدخول إلى الموقع في ٢٠ نيسان / أبريل ٢٠١٢).

طاجيكستان، تونس، تركيا، تركمانستان، اليمن". ومن الملاحظ أنّ خمس دولٍ زالت من "التعريف الجديد" القائم على الأقاليم، وهي : جورجيا، كازاخستان، قيرغيزستان، طاجيكستان، تركمانستان. وفي هذا دليل على أنّه لا يوجد تعريف ثابت نهائيًّا لمنطقة الشرق الأوسط.

يمكن أن يفترض المرء أنّ هذه الرؤى الواسعة لا بد أن تؤثر في النهج الرسميّ الأميركيّ، الذي وجدناه يؤكد أكثر فأكثر على مفهوم "الشرق الأوسط الكبير". وهذا ما قد يوحي بأنّ التفاعلات في عالم الأعمال ومختلف المشاكل، تؤثر في عدد كبير من الدول والبلدان، وأن هنالك –في نهاية المطاف– قواسم مشتركة تسهّل انتقال "العدوى" (العنف مثلا، ولكن دون أن يكون العنصر الوحيد) على نحو سريع للغاية في أنحاء المنطقة كافة.

وهكذا، يصبح المنطق الذي يضم إلى المنطقة بلدانا لم تكن حتى سقوط الاتحاد السوفييتي جزءًا منها، مفهوما، من حيث ربطها إما بالإسلام أو النزعة الإسلامويّة أو بمشاكل الأقليات.

وأهم ما ينبغي التأكيد عليه عند الحديث عن هذه المقاربة، هو اختلافها عن المقاربة البريطانيّة في نقطة جوهريّة، وهي أنّ العالم العربيّ هنا لا يعدّ المركز. وفي الحقيقة، أنّ الأميركيّين لا يركزون على **عناصر التجانس** بقدر تركيزهم على **عناصر التنافر**. والسؤال هو: لماذا؟

نفترض أنّهم يفعلون ذلك بسبب أنّهم يتوقعون المشاكل. وبالطبع، فمن النادر أن تنشأ المشاكل بسبب التجانس، إنما عناصر التنافر والفرقة هي التي تؤدي إلى نشوء الأزمات. وهذا هو سبب اهتمامهم الشديد بقضايا الأقليات والأديان واللغات وكل ذلك الغموض الذي يحيط بالحاضر الذي هو موضع شكٍ دائم وبالمستقبل الذي لا يزال في حالة تكوين. أضف إلى ذلك ميل الأميركيّين إلى البحث عن ارتباطات حيث لا يبحث الآخرون. نذكر على سبيل المثال كيف عرّفت وزارة الخارجيّة الشرق الأدنى عام ١٩٠٩، وكيف أطلقت إدارة كارتر –بتأثير بريجنسكي– اصطلاح "قوس الأزمة" على المنطقة الممتدة من أفغانستان إلى المغرب، وكيف سعت إدارة بوش إلى إعادة رسم المنطقة التي كانت مهتمة بها، منذ سقوط الإمبراطورية السوفييتية، من خلال إعادة تعريف المفهوم وصياغة مصطلح "الشرق الأوسط الكبير".

إنّ السؤال الذي يجد المرء نفسه ملزما بطرحه بعد هذا البحث في أصول مفهوم "الشرق الأوسط" هو التالي: كيف يمكننا، وقد تسلحنا بهذه البيانات، تصور المنطقة التي تعرَّف هكذا في علاقتها بالنظام العالميّ الذي غدت أميركا تنفرد بالسيطرة عليه؟

مقاربة مجتمع مغلق:

الشرق الأوسط بوصفه "نظاما تحتيّا"

بدايةً، ومن منظور علم اجتماع العلاقات الدوليّة، يمكن أن نفكر في "الشرق الأوسط" بوصفه "نظاما تحتيّا" في مركبٍ أوسع. هذا –في نظرنا– أحد الأسباب التي تجعلنا ندرك لماذا لا يوجد تعريف واحد لهذا المفهوم يمكّننا من تحديده ضمن منطقة جيوبوليتيكية بعينها. إلّا أنّه يجب أخذ عوامل أخرى بعين الاعتبار.

يقترح ل. كارل براون –على سبيل المثال– أنّ مفتاح فهم السياسات الدوليّة في "الشرق الأوسط" يتلخص في ما يلي: طوال القرنين الماضيّين، كان "الشرق الأوسط" أكثر تبعية وخضوعا لسياسات القوى الكبرى من أيّ منطقةٍ أخرى في العالم غير الغربيّ. وهذه نقطة يمكننا جميعا الاتفاق بشأنها. إنّ هذه السمة الخاصة بالتجربة السياسيّة للمنطقة العابرة من جيل إلى آخر "قد تركت أثرها في المواقف والأعمال السياسيّة الشرق أوسطية"[٧٥]. وكما أشار هذا الكاتب، فقد كانت هناك مناطق أخرى في العالم ابتُليت في وقت من الأوقات بمصيبة الاستعمار، ولكن لا توجد منطقة في العالم "بقيت عالقةً على هذا النحو غير المنقطع في سياسات القوى الكبرى المتعددة"[٧٦]. وهذا ما يضيف المزيد من الشكوك بشأن المستقبل.

---

[75] L. Carl Brown, *International Politics and the Middle East. Old Rules Dangerous Game* (Princeton: Princeton University Press.1984), p. 3.

[76] Loc. cit.

توضّح عدة أمثلة هذه الحقيقة المهمة: لقد سيطرت بريطانيا العظمى على شبه القارة الهنديّة، ولكن "الشرق الأوسط الحديث لم يقع أبدا تحت سيطرة قوة كبرى واحدة"[٧٧]. وكانت الصين وقعت تحت سيطرة قوى متنافسة، إلّا أنّها استعادت وحدتها السياسيّة في القرن العشرين. و"منذ أصبحت الإمبراطورية العثمانيّة رجل أوروبا المريض، كانت الوحدة السياسيّة الشاملة –أو حتى الوحدة الجزئية– صعبة المنال في الشرق الأوسط"[٧٨]. وعلى حد تعبير براون "إذا كان العالم بأسره قد مسّه التحوّل وتشكّل تحت تأثير الغرب في العصور الحديثة [...]، فلا يوجد مكان آخر تبلور فيه ذلك البعد السياسيّ للمواجهة الحاسمة بالشمول والثبات الذي تبلور بهما في الشرق الأوسط. بهذا المعنى، **فإن الشرق الأوسط هو النظام التحتيّ للعلاقات الدولية الأكثر اختراقا في العالم حاليا**"[٧٩] (استخدام خط غليظ منا للتأكيد على العبارة).

عندما يتحدث براون عن هذا النظام التحتيّ المخترق تمام الاختراق، فإنّ ذلك ليس فقط لتأكيد شدة التأثير الأجنبيّ أو الهيمنة الاقتصاديّة. هناك مناطق أخرى[٨٠] تعرّضت للهيمنة على نحو أشد أو أقل عنفا، وعلى نطاق أكثر أو أقل اتساعا، لكن المواجهة في تلك المناطق لم تستدم لفترة بهذا الطول (أي على مدى قرنين من الزمن). وفي بعض الحالات، دمرت الهيمنة السياسيّة الغربيّة النظم المحليّة أو تحدتها، ثم رحلت في النهاية أو على الأقل تراخى ضغطها.

غير أنّ نظامًا سياسيًّا مخترقًا –كما يعرّفه براون– هو ذلك الذي "لا أمكن للمتحدي الخارجيّ أن يستوعبه بنجاعة ولا هو أطلقه محررا إياه من حضنه الخانق"[٨١]. فالنظام المخترق "في مواجهة

---

[77] Ibid., p. 40.

[78] Loc. cit.

[79] Loc. cit.

[٨٠] خصوصا المناطق المسلمة في الاتحاد السوفييتي السابق التي ابتلعها النظام السياسي لدولة مهيمنة.

[81] L. Carl Brown, Op. cit., P. 5.

مستمرة مع نظام سياسي خارجي"[٨٢]. أما بخصوص درجة الاختراق، فيعتقد براون أنّ أفضل ما يحددها ربما هو أنّ الفروق بين السياسات المحليّة والوطنيّة والإقليميّة والدوليّة تميل إلى التضاؤل أو الالتباس. وفي هذا السياق، لا يمكن تفسير سياسة "المجتمع المخترق" – حتى محليا – بدون الإشارة إلى التأثير الاقتحاميّ لنظام خارجيّ.

إذا كانت هذه الفرضية سليمة، فإنّ ما يترتب على ذلك هو أنّ العلاقات بين الولايات المتحدة ودول "الشرق الأوسط" لا يمكن أن تفلت من الشكل نفسه، أي أنّ المواجهة قائمة في طبيعة هذه العلاقات وكذلك في بنيتها. ففي الوقت الذي تحاول فيه الدبلوماسية في الطرفين، بذل قصارى جهودها لمد الجسور من فوق الفجوات، يبدو النظام ملغمًا. فقد تصدر الضربات من أي جانب. وهذا يعني أنّه لا يوجد شيء متين في هذا البناء. إذ يبدو أنّ كل شيء يعمل في الأمد القصير والمدى المتوسط، فيما الرؤية المستقبليّة تبقى مضطربة وغائمة. بل هناك أسوأ، ففي هذا النظام التحتيّ، لا تستطيع دول المنطقة نفسها بناء أيّ شيء متين ما دامت تعتمد على قوى لا تسيطر عليها أو تتحرك تحت تأثيرها.

إنّ تاريخ المنطقة المعاصر يميل إلى إثبات هذه الفرضية. ولنتناول الآن مثالين هما لبنان وفلسطين.

حالة لبنان

تبيّن حالة لبنان بالذات الخطوط الملتبسة، والاختلاط بين السياسات المحليّة والإقليميّة والدوليّة. ونشير في هذا الخصوص إلى ما يلي:

---

82 Loc. cit.

١- **إنزال مشاة البحريّة الأميركيّة عام ١٩٥٨:** وقع تفسير هذا الحدث بطرق مختلفة. أولًا؛ محليًّا، قُدِّم بوصفه استجابة لدعوة الرئيس كميل شمعون. ثانيًّا؛ دوليًّا، قُدِّم بوصفه حركةً موجهةً ضد "الشيوعية الدوليّة" وفقا لمبدأ أيزنهاور. وثالثًا؛ إقليميًّا، قُدِّم بوصفه تحركًا أميركيًّا مضادًا للاختراق الذي سجلته الناصريّة في المنطقة.

٢- **نشوب الحرب الأهليّة اللبنانية عام ١٩٧٥:** أولًا (في المستوى المحليّ)؛ رُبطت تلك الحرب بضعف الدولة اللبنانيّة وعجزها عن السيطرة على اللاجئين الفلسطينيّين على أراضيها، كما فعلت دول عربيّة أخرى، فضلا عن التوازن الطائفيّ الهش الذي قام عليه دستور ١٩٤٣. من هنا جاء تدخل القوات السوريّة والجامعة العربيّة (المستوى الإقليميّ)؛ كما وقع ربطها بعملية الملك حسين القمعيّة ضد منظمة التحرير الفلسطينيّة في الأردن (١٩٧٠). وثالثا (المستوى الدوليّ)، لاحقا الغزو الإسرائيليّ للبنان وتدخّل الحكومة الأميركيّة والأمم المتحدة لإجلاء الفلسطينيّين.

٣- **شهد لبنان قبل زمن غير بعيد الأحداث الأسوأ منذ نهاية الحرب الأهلية:** اغتيال بعض الأعضاء البارزين من النخبة السياسيّة (بمن فيهم رئيس الوزراء) في هجمات موجهة من الخارج. وطوال عدة أشهر، كان البلد غير قادر على انتخاب رئيس جمهورية.

إلا أنّ لبنان مثال وليس استثناء. لنتذكر فقط كيف أنّ معظم الدّول في هذه المنطقة نشأت نتيجة التّقسيم الاستعماريّ بين بريطانيا وفرنسا، وهكذا أصبحت مناطق نفوذ لقوى أجنبيّة متنافسة. إنّ هذا الوضع لا يزال قائمًا.

المسألة الفلسطينيّة

على الرغم من أنّ هذه المشكلة تقع في مساحةٍ ضيّقةٍ نسبيًّا، فإنها تتجاوز حدودها المحليّة. وتبين الحالة فعلا كيف حُسمت مشكلة دوليّة (الظلم المسلط على اليهود أثناء الحرب العالميّة الثانية) على نحو انتهك حقوق شعب آخر (الفلسطينيّون). كانت المسألة الفلسطينيّة مركزيّة في كل السياسات المحليّة والإقليميّة والدوليّة المتصلة بـ "الشرق الأوسط". وكما لاحظ براون، بإمكاننا أن نرى كيف شكّلت القضية الفلسطينيّة سياسات القوميّة العربيّة بحيث "كانت الحروب العربيّة – الإسرائيليّة الأربع (١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧ و١٩٧٣) أهم نقاط التحول في التاريخ العربيّ

الحديث"[٨٣]. كما أنّ فلسطين تصدّرت جداول أعمال عدة مؤتمرات قمة عربيّة، وكانت محور جلسات نقاش عديدة. وعليه، فإنّها ليست قضيةً "من الدرجة الثانية" أو مسألةً "هامشيّة" تستطيع أيّ سياسة ذات اهتمام بالمنطقة إهمالها أو تجاهلها، كما أنّها ليست مسألةً "عقائديّة" مرتبطة بالقوميّة العربيّة أو التيارات الإسلامويّة أو أيّ أيديولوجية سياسيّة شائعة.

إنّ الصراع العربيّ – الإسرائيليّ يتميز بسمة فريدة كونه صراعًا ناجمًا عن –على نحو طبيعي تقريبا– عن نظام المسألة الشرقيّة. بل أكثر من ذلك "تمثّل المواجهة العربيّة – الإسرائيليّة نظام المسألة الشرقيّة في شكله الأكثر تطورا"[٨٤]. ويذكّرنا براون بالطبيعة المتعددة الأطراف للمواجهة (شاركت عدة دول في المنطقة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في تلك الحروب، باستثناء حرب السويس) فضلا عن تدخل القوى الكبرى التي تعرضت مصالحها للتهديد. من هنا، يتضح لماذا كان ياسر عرفات دائما يَعدّ اتفاق السلام الذي توصّل إليه مع إسرائيل أكثر من محض "اتفاق" ثنائي بين منظمة التحرير الفلسطينيّة وإسرائيل. وكان هذا يعني بالنسبة إليه أنّه من دون دعم المجتمع الدوليّ فلن يكون لهذا الاتفاق أيّ فرصة للنجاح.

ويمكننا الذهاب أبعد من ذلك في عرض نطاق الاختراق الذي استهدف هذا النظام التحتيّ للعلاقات الدوليّة. ويمكننا الصعود في الزمن حتى "المسألة الشرقيّة".

المسألة الشرقية

القول إنّ الثقافة السياسيّة لـ "الشرق الأوسط" الحديث تشكّلت تحت التأثير المتنفّذ للقوى الخارجيّة، هو في النّهاية حقيقة مبتذلة تصدُق كذلك على مناطق أخرى عديدة في العالم. إلّا أنّ براون يذكر شيئا آخر، إذ يرى أنّ "الشرق الأوسط" انحشر في دواليب السياسات الغربيّة لمدة هي من الطول بحيث أصبح "تقريبا ملحقا بنظام القوى الغربيّة (الذي شمل دائما روسيا ويمتد الآن إلى

---

[83] Ibid., p. 159.

[84] Ibid., p. 141.

الولايات المتحدة)"[٨٥]. يتتبع براون هذه السّمة الخاصة "بالشرق الأوسط" صعودًا حتى "المسألة الشرقيّة" التي سمحت للدول الأوروبيّة بين القرن الثامن عشر والفترة التالية مباشرة للحرب العالمية الأولى بتفكيك الإمبراطورية العثمانيّة.

لابد من الإشارة في هذا السياق إلى أنّ هذا الباحث لا يرى أن **المسألة الشرقية** قد انتهت في اليوم الذي أعقب الحرب العالميّة الأولى بتفكيك الإمبراطورية العثمانيّة، إنما يعتقد أنّها استمرت من خلال سياسات الهيمنة الغربيّة الجديدة. فبعد تقسيم المنطقة اعتباطيًّا، تولت الإمبريالية الغربيّة "تسهيل نمو دول مستقلة في الشرق الأوسط، أصبحت أجهزتها الحكوميّة وجيوشها عقب ذلك تمثّل مصالح راسخة للسياسات الدولية المشكالية kaleidoscopic"[٨٦].

يلاحظ أنّ براون عرّف "الشرق الأوسط" بأنّه "مكوّن من أراض أفرو- آسيويّة كانت تابعةً للإمبراطورية العثمانيّة"[٨٧]، وهذا في نظره ما يمنح المنطقة **هُويّة** لا تحدَّد بمعايير المصالح الخارجيّة بل بمعايير محليّة تؤكد بشكل خاص "على قاسمٍ مشتركٍ يتمثل في تقاسم ثقافة سياسيّة واحدة لعدة قرون"[٨٨]. يقع التأكيد على هذه الرابطة المشتركة لأنّ "التصنيفات الذهنية الغربيّة اللّاواعية تميل إلى تجاهلها"[٨٩] أحيانا، إن لم تنجرّ إلى الخلط المفاهيميّ بين الانتماء الإسلاميّ و/أو الإثني من جهة والانتماء إلى قوميّة لغويّة من جهة أخرى.

---

85 Ibid., p. 5.

86 Ibid., p. 103.

87 Ibid., p. 70.

88 Ibid., p. 8.

89 Loc. cit.

براون مصيبٌ عندما يلاحظ، على سبيل المثال، أنّ الغرب اعتاد التفكير بحسب تصنيف الجنسيات: الإنكليزيّة، الفرنسيّة، الألمانيّة، ...إلخ، وأنّه كثيرا ما يشير إلى العثمانيّين بصفتهم الأتراك (Ibid., pp. 8–9). وفي الحقيقة أنّ هذه من بين المشاكل التي بقيت من دون حسم. فكيف يحدد المرء هُويّة مواطن في "الشرق الأوسط" اليوم دون الرجوع إلى التكوين الجيو- تاريخيّ والسياسيّ الذي غُمر

على الرغم من ذلك، فهذا لا يبطل حقيقة أنّ المفهوم نفسه اختراعٌ مرتبط بالمصالح الإمبريالية، كما سبق وأشرنا. أما ما يتعلق بهُويّة المنطقة، فقد لاحظنا كيف أنّ المقاربة البريطانيّة تركّز أكثر على العالم العربيّ بوصفه قلب "الشرق الأوسط".

عند هذا الحد، من الواضح أنّ التحليل أعلاه يقود إلى النتيجة التالية: إذا كان "الشرق الأوسط" هو ذلك النظام التحتيّ المُخترَق تماما والخاضع لتأثيرات القوى الخارجيّة والمرهَق بتنافسها، فإنّ سبب هذا الصراع المستمر هو المركز الإستراتيجي الذي ستتمتع به أيّ قوة تنجح في السيطرة على الجزء الأكبر من مساحته. وتعدّ مصادر الطاقة (النفط والغاز الطبيعي) عنصرًا- مفتاحيًّا هنا.

الموقع الإستراتيجي

يرى فيليب حتي أنّ المنطقة برمتها "مكونة إستراتيجيا على نحو يجعلها صلة الوصل بين أوروبا وآسيا وأفريقيا وجسرا بين محيطين هما المحيط الأطلسي بامتداده الطويل البحر المتوسط، والمحيط العربيّ- الهنديّ بذراعيه البحر الأحمر والخليج"[٩٠]. ويذكّرنا المؤرخ أنّ **المتوسط** يعني في الأصل "في وسط اليابسة" – عندما "كان العالم المعروف أصغر ولم يكن أحد قد غامر أبعد من أعمدة هرقل، أي جبل طارق"[٩١]. وبفضل ضفاف "الجزر الشرقيّة لذاك البحر، التي توحّد

فيه؟ على سبيل المثال، هل أنّ مواطنًا مولودا في القاهرة، مصريٌّ ببساطة، كما سيصفه أحد الغربيّين، أم هو أيضا "شيء آخر" (كيفما حددنا ذلك : قبطيّ، مسلم، سنيّ، شيعيّ، وهلم جرا)؟ وكما نعلم، فإنّ بعض تلك القضايا تظهر أثناء الصراعات (الحرب الأهليّة في لبنان، حرب العراق، ... إلخ) إذ تبرز مشاكل الهُويّة في ضوء النهار. فما تكشفه هذه الصراعات على نحوٍ واضحٍ هو أنّ المواطن ليس عراقيًّا أو لبنانيًّا فحسب، إذ قد يُقتل لأنه سنيٌّ أو شيعيٌّ أو مسيحيٌّ مارونيٌّ أو كرديٌّ، ...إلخ.

90 Philippe K. Hitti, Op. cit., p. 7.

91 Loc. cit.

وتقسم القارات التاريخيّة الثلاث، انتشرت الحضارة باتجاه أوروبا الشرقيّة"[٩٢]. ولاحظ حتي أنّ المنطقة ليست فقط مهد الحضارة والصلة الواصلة بين القارات الثلاث، بل كذلك مهد أكبر الإمبراطوريات في التاريخ، تلك التي لم يكن بالإمكان أن تستمر من دون فتوحات وحروب. تستوي في ذلك حروب طروادة شبه الأسطوريّة في حوالى ١٢٠٠ قبل الميلاد من أجل السيطرة على الدردنيل، والصراع المصريّ– الإنكليزيّ في أوائل القرن العشرين من أجل السيطرة على قناة السويس. وينطبق الأمر نفسه على التنافس في القرن التاسع عشر بين القوى الكبرى الأوروبيّة الثلاث في ذلك الوقت (روسيا وبريطانيا وفرنسا) لتقاسم مناطق النفوذ في الإمبراطورية العثمانيّة المتهاوية.

إلى ذلك، فقد كان من شأن اكتشاف النفط واستغلاله "الحيويّين للصناعة في وقت السلم، وعلى نحو أكثر في وقت الحرب"[٩٣] تعزيز الأهمية الإستراتيجية للمنطقة. وفي هذا الصدد، سيكون من المُضلل الحديث عن السياسة الأميركيّة في الشرق الأوسط من دون ذكر النفط بوصفه عاملًا مهمًا في التوازن الإستراتيجي.

في الواقع، إنّه مع نمو أهمية النفط على نحو متزايد في الاقتصاد العالميّ، لم يكن في وسع الأميركيّين، الذين أدركوا أنّ احتياطاتهم في تناقص، أن يفعلوا شيئًا سوى الدخول في سباق كبير مع الدول الكبرى في العالم من أجل السيطرة على مصدر الطاقة هذا. واجه الأميركيّون أولًا الإنكليز الذين سبقوهم إلى المنطقة. كان ذلك على الأقل منذ سنة ١٩١٦، عام الصراع الأول بين بريطانيا العظمى وشركة ستاندرد أويل أوف نيويورك[٩٤]. وعلى الرغم من اعتراضات الرئيس

---

[92] Loc. cit.

[93] Loc. cit.

[٩٤] أحمد عبدالرحيم مصطفى، **الولايات المتحدة والمشرق العربي**، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٤ (أبريل ١٩٧٨) (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٨)، ص١١–١٢.

ولسن واحتجاجاته، فقد شعرت الولايات المتحدة بأنّ الاتفاقيات الثنائية بين فرنسا وبريطانيا العظمى لاقتسام المناطق النفطيّة بينهما (معاهدة سان ريمو ١٩٢١ مثلا) قد تجاوزتها. وفي الحقيقة أنّ تاريخ العلاقات الدوليّة في هذه المنطقة بين الحربين العالميّتين قد يكون تاريخ التنافس والسباق على النفط. وبالمناسبة، فإنّ الاتحاد السوفييتي لم يبق خارج لعبة القوى الكبرى. وقد تبنت وزارة الخارجية الأميركيّة سياسةً واضحة في هذا الصدد: "فتح أبواب حقول الشرق الأوسط النفطيّة للشركات الأميركيّة المهتمة بذلك. وقد تحقق ذلك أساسًا من خلال اتفاقية ١٩٢٨، ونرى عدد الشركات في الخليج يتزايد خلال العقد الذي أعقب توقيع هذه الاتفاقية"[٩٥]. وفي عام ١٩٣٩ حصلت شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا (سوكال) وشركة تيكساكو على امتيازات شملت البحرين وشبه الجزيرة العربيّة برمتها. وفي الوقت نفسه، نجحت الشركات الأميركيّة في اختراق الكويت، حيث تشاطرت الكعكة مع البريطانيّين، بينما قامت بالاستكشاف في العراق. **إنّ مظهرًا رئيسا من هذا التوسع النفطيّ الأميركيّ يتمثّل في تولي الحكومة الأميركيّة تسهيله.** وهكذا دعمت وزارة الخارجية" حسب أحمد عبد الرحيم مصطفى، "مبدأ الباب المفتوح لضمان حصول الشركات الأميركيّة "على ٢٣,٧٥% من حصص شركة نفط العراق: Iraq Petroleum company. وعلاوة على ذلك، حصلت الشركات الأميركيّة على ١٠٠% من حصص النفط في البحرين والسعودية و ٥٠% من حصص النفط الكويتيّ"[٩٦].

أدت الأحداث في الفترة بين الحربين العالميتين بصناعة النفط الأميركيّة إلى السيطرة على ٦٠% من إنتاجه في منطقة الخليج. ومن ذلك الوقت فصاعدا لم يعد في وسع السياسيين الأميركيّين تجاهل هذه الحقائق. وستنفق صناعة النفط مبالغ ضخمة على تطوير الإنتاج، الذي ارتبط على

---

[٩٥] المصدر السابق، ص ١٧. لنستذكر هنا أنّه في أغسطس / آب ١٩٢٨، تولت خمس شركات أميركيّة تأسيس شركة "تنمية الشرق الأدنى"، التي كان هدفها التشارك مع شركة النفط التركيّة. ثم وقّعت اتفاقية النزاهة التي حملت اسم اتفاقية "الخط الأحمر" (المصدر نفسه).

[٩٦] المصدر نفسه، ص ٢٨.

نحو مباشر وغير مباشر بالدفاع الوطني ومركز الولايات المتحدة في العالم وإستراتيجيتها الكونية.

تفضيل مصطلح "الشرق الأدنى"

خلال الحرب العالميّة الثانية ولأغراض التنسيق العسكريّ، بدأ المفهومان البريطانيّ والأميركيّ للمنطقة يتقاربان. كان لدى بريطانيا قيادة "الشرق الأوسط" المخصصة لعملياتها في شمال أفريقيا التي لم تكن حدودها واضحة بما فيه الكفاية. أما الولايات المتحدة، فعلى الرغم من أنّ الرؤساء الأميركيّين –بدءا من أيزنهاور في عقد الخمسينيات– كانوا يتحدثون عن "الشرق الأوسط"، فإنّ الإدارة الأميركيّة بدت بطيئةً في تبني المصطلح. لكن لعدة أسباب، لا يوجد اليوم لدى وزارة الخارجيّة فرق بين مصطلحي **الشرق الأدنى** و**الشرق الأوسط**، على الرغم من أنّ المنطقة المشار إليها بالمصطلحين تمتد من المغرب إلى إيران. وكما يشير إلى ذلك الموقع الإلكتروني للوزارة، "يُعنى مكتب شؤون الشّرق الأدنى برئاسة مساعد الوزير [...] بالسياسة الخارجيّة الأميركيّة والعلاقات الدبلوماسية الأميركيّة مع الجزائر، والبحرين، ومصر، وإيران، والعراق، وإسرائيل، والأردن، والكويت، ولبنان، وليبيا، والمغرب، وعمان، والأراضي الفلسطينية، وقطر، والسعودية، وسورية، وتونس، والإمارات العربية المتحدة، واليمن"[٩٧].

يلاحظ أنّ تركيا وباكستان وأفغانستان لا ترد في هذا التعريف للمنطقة. ونقرأ في الخريطة المرفقة بهذا التعريف تعليقا مهما يقول: "تمثيل الحدود ليس بالضرورة نهائيا. فلا تزال إسرائيل تحتل

[٩٧] وزارة الخارجية الأميركيّة، الموقع الإلكتروني، مكتب شؤون الشرق الأدنى: http://www.state.gov/p/nea/

الضفة الغربيّة وقطاع غزة ولا يزال وضعهما القانونيّ انتقاليًّا وموضوعًا للتفاوض بين إسرائيل والفلسطينيّين [...] لتحديد الوضع النهائيّ"[٩٨]. وهذا اعترافٌ واضح بعدم مشروعية احتلال هذه الأراضي من طرف إسرائيل.

أشرف هذا القسم بوزارة الخارجيّة في عهد إدارة بوش على المكاتب التالية:

- مكتب شؤون شبه الجزيرة العربيّة وإيران.
- مكتب شؤون مصر والشرق Levant.
- مكتب الشؤون الإسرائيليّة والفلسطينيّة.
- مكتب شؤون العراق.
- مكتب شؤون المغرب العربيّ.
- مكتب المدير التنفيذيّ.
- مكتب مبادرة الشّراكة في الشرق الأوسط.
- مكتب الدبلوماسية العامة.
- مكتب الشؤون الإقليميّة.

يجب أن نلاحظ كذلك أنّ مكتب شؤون الشرق الأدنى يخضع لإشراف وكيل وزارة الخارجيّة للشؤون السياسيّة، الذي يشغل في الترتيب الهيكليّ لوزارة الخارجيّة الموقع الثالث (بعد نائب الوزير)، ويقدّم له مساعدوه المسؤولون عن المكاتب الجغرافية المشورة.

---

[٩٨] انظر الخريطة على الرابط التالي: http://www.state.gov/p/nea/ci/

أما وزارة الدفاع، فتستخدم أيضا –وبالخصوص– مصطلح الشرق الأدنى، غير أنّها تمنحه تعريفا مختلفا. فقبل بضعة أشهر من تأسيس البنتاغون **مركز الشرق الأدنى وجنوبي آسيا للدراسات الإستراتيجية** (NESA) في ٣١ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٠، أعلن أنّ المركز سيشمل ثلاث قيادات أميركيّة موحّدة، هي القيادة الأوروبية، وقيادة المحيط الهادي، والقيادة المركزيّة. ويدعم المركز الدول العشرين التالية: المغرب، الجزائر، تونس، مصر، إسرائيل، الأردن، سورية، لبنان، السعودية، اليمن، عمان، الإمارات العربيّة المتحدة، قطر، البحرين، الكويت، باكستان، الهند، بنغلاديش، سري لانكا، ونيبال. ويجدر أن نلاحظ كيف أنّ ليبيا، والعراق، وإيران وأفغانستان استُبعدت جميعا من الندوات والمؤتمرات والاجتماعات والأنشطة الأخرى للمركز[٩٩]، على الرغم من أنّ الدول المشاركة هي تلك التي تقع في منطقة الشرق الأدنى وجنوبي آسيا، و"التي للولايات المتحدة علاقات معها" إضافة إلى "دولٍ ذات أهمية إستراتيجية في المنطقة"[١٠٠]. ووفقا لألينا رومانوفسكي، المدير المؤسس للمركز، فإنّ مركز الشرق الأوسط وجنوبي آسيا للدراسات الإستراتيجية واحد من خمسة مراكز تابعة لوزارة الدفاع الأميركيّة[١٠١] تدعم تثقيف الضّباط وموظفي الأمن المدني في أرجاء العالم. "إن هذه المراكز ليست كلّيات حربيّة ولا منتدياتٍ لحل النزاعات، بل هي أشبه بالمؤسسات الأكاديمية. تعمل فيها فرق دوليّة مكونة من خبراء الأمن

---

[99] Jim Garamone, "Center Opens for Near East–South Studies", *American Forces Press Service,* Dec.12, 2000. http://osd.dtic.mil/news/Dec2000/n12122000_200012122.html

[100] http://www.defense.gov/DODCMSShare/briefingslide/232/001207-D-0000C-003.jpg

[١٠١] المراكز الأربع الأخرى هي: مركز جورج مارشال في ألمانيا، ومركز آسيا– المحيط الهادي في هاواي، ومركز نصف الكرة الغربي للدراسات الدفاعيّة، ومركز أفريقيا للدراسات الإستراتيجية، و تنتمي كذلك إلى جامعة الدفاع الوطني (انظر: Jim Garamone, Op. cit.).

الوطنيّ، وتنظّم دورات مخصصة لتلبية الحاجات الفريدة لكل منطقة، عن مواضيع مثل صنع القرار في مجال الدفاع، والعلاقات المدنية–العسكريّة، وتخطيط الميزانيات"[١٠٢].

لقد حدّدت مهمة مركز الشرق الأدنى وجنوبي آسيا للدراسات الإستراتيجية في وثيقة لوزارة الدفاع، ويمكن تلخيصها كما يلي:

– المساعدة في تطوير السياسات والإستراتيجيات المتعلقة بالأمن الوطنيّ.

– تطوير خطط للالتزام الثنائي والإقليميّ في "الشرق الأوسط" وجنوبي آسيا.

– تقديم المشورة بشأن سياسات وزارة الدفاع الأميركيّة وتنسيق التنفيذ مع هيئة الأركان المشتركة والقيادات القتاليّة الموحدة والإدارات العسكريّة والعناصر الأخرى التابعة لوزارة الدفاع.

– تقديم الإشراف السياسيّ لبرامج وزارة الدفاع أثناء تنفيذها.

– توضيح سياسات وزارة الدفاع في المنطقة للأطراف المعنية.

وتحدّد وثيقة رسمية أخرى مهمة المركز كما يلي: "تعزيز الاستقرار في الشرق الأدنى وجنوبي آسيا بتأمين بيئة أكاديمية يمكن فيها معالجة المسائل الإستراتيجية وتعميق الفهم وتعزيز الشراكات وتحسين اتخاذ القرارات المتعلقة بالدفاع وتقوية التعاون بين القادة العسكريّين والمدنيين من المنطقة والولايات المتحدة"[١٠٣].

---

[١٠٢] المصدر نفسه.

[103] http://www.defenselink.mil/DODCMSShare/briefingslide/232/001207-D-0000C-004.jpg

الخاتمة

يُستنتج من التحليل السابق أنّ مفهوم "الشرق الأوسط"، بجميع مرادفاته، و بكل تطوراته وأشكاله، كان دائما يتضمن دلالةً إستراتيجية. فإذا لم يكن عسكريًّا صراحةً (أو ذا صلة بالمصالح العسكريّة)، فإنّه لا يقف بعيدا، من حيث أنّ الأفق الذي يغطيه ينتمي إلى حقل هو بالتحديد مشترك بين الجندي والدبلوماسي، ألا وهو حقل العلاقات الدوليّة. بهذا الفهم، يمكن للمرء أن يقرأ سلسلة الاتفاقات والمعاهدات التي ربطت أميركا بالدول العربيّة والإسلاميّة، منذ الحرب العالمية الثانية حتى اليوم، بصفتها طرقًا متنوعة لتنظيم تدفق النفط والبضائع وربط النظام التحتيّ "للشرق الأوسط" بسياسة الولايات المتحدة ومصالحها.

نظرا لعدم وقوع حدثٍ كبير من شأنه إدخال تغيير عميق على موازين القوى (على الأقل في الفترة السابقة للربيع العربيّ)، فإنّ التوازن الدقيق الذي بُني عليه استقرار المنطقة كان يعتمد على علاقات القوة تلك نفسها. هكذا بقي النظام التحتيّ "للشرق الأوسط" ملحقا بنظام القوة الغربيّة الذي تهيمن عليه الولايات المتحدة. إنّ أحداثًا مثل انهيار جدار برلين، وحلف وارسو، والإمبراطورية السوفياتية، ضمنت لأميركا فحسب أن تصبح "الزعيم الأكبر" Big Boss للنظام التحتيّ. وقد ورثت إدارة بوش هذه المعطيات الخاصة بالتاريخ والجيوبوليتيك، والتي بدونها لا يمكن القيام بأيّ تخطيط سياسيّ. ومن ثمّ، فقد حدد هذا الميراث عملها سلفًا، حتى قبل أن يبدأ.

ومع ذلك، فإنّ هذا المفهوم القائم على أساس مصالح القوى الأجنبية الإستراتيجية، يواجه مقاومة متزايدة داخل المنطقة. في العالم العربيّ على سبيل المثال، برز تيارٌ يعارض هذا المفهوم باعتباره يمثّل مشروعًا إمبرياليا. فلم يكن رفض مشروع "الشرق الأوسط الكبير" الذي رافق اتفاق أوسلو، خصوصية فلسطينيّة. على العكس من ذلك، ربما كان الفلسطينيّون (خصوصا أتباع منظمة التحرير الفلسطينيّة) أقل الناس حرصا على معارضة هذا المشروع، نظرا لما كان يُفترض من أنهم سيكونون المستفيدين منه (إلى جانب إسرائيل ومصر والأردن). فالسلام مع إسرائيل كان إلى حد ما يعتمد عليه. لكن الذين رفضوا – ومازالوا يرفضون المشروع– هم ناشطون وأطراف من خلفيات وجنسيات عربيّة مختلفة. ويمكن تفسير هذه المعارضة بوجود العديد من العوامل التي ترتبط بالضرورة مع بعضها البعض بسبب قابلية "الشرق الأوسط" للاختراق، فالعوامل

الأيديولوجية أو ذات الصلة بالسياسة الداخليّة (المزايدات مع الأنظمة المحلية مثلا) لا يمكن أن تكون معزولةً عن التأثيرات الخارجيّة التي لا تزال فعّالة، إن لم تكن مهيمنة.

النتائج الأساسية:

وفي النهاية، نقدّم خلاصة النتائج الرئيسة التي توصلنا إليها خلال التحليل السابق:

– في القرن التاسع عشر، فتحت المدارس التبشيريّة الأميركيّة في المنطقة الأفق لأفكار ثوريّة.

– في الوقت نفسه، كان التّصور (الغربيّ) السائد عن سكان المنطقة يصفهم بالمتخلفين والهمجيّين وغير الناضجين للديمقراطية. وكان السبب يُعزى إلى الإسلام.

– انعكس الاهتمام العام بشعوب الشرق الإسلاميّ في الاستشراق كحقلٍ بدأ بالبروز.

– مثّلت حملة بونابرت إلى مصر (١٧٩٨– ١٨٠١) نقطة الصدام.

– كانت محاولة بونابرت إضفاء الشرعية على المشروع الاستعماريّ في عيون السّكان المغلوبين دامغة إلى الحد الذي غدت معه تستخدم كنقطة تاريخيّة مرجعيّة حتى لدى معالجة قضايا راهنة.

– عممت الحكومة البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية استخدام مصطلح "الشرق الأوسط" بربطه بمركز التموين في القاهرة. ومن ثمّ، أصبح مشروعا بريطانيا– أميركيّا.

– خدم تعريف "الشرق الأوسط" في أحيان كثيرة مصالح القوى الكبرى التي سيطرت على المنطقة. فالانتماء أو عدم الانتماء إلى المنطقة يحدد الدّور الذي تتوقعه تلك المصالح الأجنبية من البلد.

– "الشرق الأوسط" المعاصر عموما اختراعٌ لم يحصل على شهادة ميلاده من شعوب المنطقة بل من القوى الأجنبية.

– اعتبار "الشرق الأوسط" مركز الإسلام لا أساس له.

– غير صحيح أيضا اعتبار "العالم العربي" – أي الشعوب العربية – مركز الإسلام.

– في سنة ١٩٠٠، وضمن اهتمامه بحماية الهند ضد المخاطر القادمة من روسيا، حدّد سير توماس غوردن "الشرق الأوسط" بكونه يشمل المنطقة الممتدة بين إيران وأفغانستان.

– وسّع الأميرال الأميركيّ ماهان المفهوم عام ١٩٠٢ معتقدًا أنّه من اخترعه. ولم يحدّد منطقةً على نحو دقيق. بيد أنّ الغرض من استعماله المفهوم هو خدمة مشروعات استعماريّة.

– وتبعهما فالنتاين شيرول، فوسّع دائرة الاهتمام بتطوير المفهوم ليدلّ على منطقة جغرافية.

– كانت تركيا (أو الدولة العثمانيّة) هي محور التركيز في الاستخدام "الكلاسيكيّ" لمفهوم "الشرق الأدنى"، بينما الهند هي محور تركيز "الشرق الأوسط"، و الصين محور تركيز الشرق الأقصى.

– هذه ليست منطقة بقدر ما هي مفهوم مبتدع كان الهدف الأصليّ منه خدمة مصالح القوى الأجنبية، وهو ما يفسّر لماذا يتغير شكله العام باستمرار وفقا لمصالحها الإستراتيجية.

– في المنظور البريطانيّ، العالم العربي هو قلب "الشرق الأوسط"، وهو يعترف أيضا بالطابع الخارجيّ للمفهوم وارتباطه بمصالح القوى الغربيّة.

– إن الافتقار إلى قبول عالميّ بمعنى واحد لـ "الشرق الأوسط" أو حدوده يتضح بجلاء عندما يرى المرء عدد الدول التي يشملها التعريف أحيانا وتستبعد منه أحيانا أخرى.

– في المنظور الأميركيّ، ليس العالم العربيّ هو القلب، فالأميركيّون لا يركّزون على ما هو متجانس وموحد بقدر ما يركزون على ما هو غير متجانس ومفرّق.

– "الشرق الأوسط" هو النظام التحتيّ للعلاقات الدوليّة الأكثر اختراقا في العالم اليوم.

– يجد النظام التحتيّ نفسه في مواجهة مستمرة مع قوة أجنبية مهيمنة.

– تبدو المواجهة متأصلةً في طبيعة العلاقات بين الولايات المتحدة و"الشرق الأوسط" وكذلك في بنيتها.

– في مثل هذا النظام التحتيّ، يبدو كل شيءٍ مقتصرا على العمل في المدى القصير والمدى المتوسط، مع بقاء رؤية المستقبل غائمة.

– نجد "للمسألة الشرقيّة" استمرارية من خلال سياسات الهيمنة الغربيّة الجديدة.

– سبب هذا الصراع هو الموقع الإستراتيجي الذي تؤمّنه المنطقة لأي قوة تغدو مهيمنة. وتمثّل مصادر الطاقة (النفط والغاز الطبيعيّ) عنصرًا رئيسا في الصراع.

– قد يكون تاريخ العلاقات الدوليّة في هذه المنطقة بين الحربين العالميّتين تاريخَ التنافس والسباق إلى النفط.

– ارتبط إنتاج النفط على نحو مباشر وغير مباشر بالدفاع الوطنيّ الأميركيّ والمركز الأميركيّ في العالم والإستراتيجية الأميركيّة الكونيّة.

– تحدد هذه التركة عمل أيّ إدارة أميركيّة، حتى قبل أن تبدأ.

– تفسّر المقاومة ضد مشروعات إدارة بوش (بما فيها مشروع الشرق الأوسط الكبير) في ضوء التحليل أعلاه.